الفصل الثاني:

فقه سنن العمران البشري
(في الأسس المنهجية لفقه السنن)

تمهيد:

يشكل الحديث عن الأسس المنهجية لفقه السنن مدخلاً مركزياً، لتقديم مقاربة حضارية كلية للمسألة السننية في علاقتها بإقامة أحوال راشدة من العمران البشري. ويرتكز هذا المدخل المنهجي على النظر في النص القرآني لاستمداد رؤيته الكلية حول حجية السنن وأقسامها وخصائصها، وما تعلق بموارده وأصول معرفتها وطرق استنباطها، ذلك أن كثيراً ممن تناول موضوع السنن قدم أقساماً وأنواعاً تتعارض مع رؤية القرآن وحديثه عن السنن، ولم يتم النظر إلى أقسام السنن من خلال خصائصها وطبيعة بنيتها الداخلية فنتج عن ذلك كله قول بوجود سنن كونية وأخرى اجتماعية وهو ما لا تسعفنا آيات القرآن في التسليم به، كما نتج عن ذلك قول أن السنن الكونية أكثر ثباتاً واطراداً من السنن الاجتماعية وهو ما تنفيه صراحة آيات القرآن التي بينت أن سنن الله في التاريخ والمجتمع والعمران هي التي لا تقبل تبديلاً ولا تحويلاً. وقد خصصت لذلك عنوانين، على أنني جعلت العنوان الثالث حديثاً عن أهمية وضرورة الفقه السنني وأثره في تجديد الوعي الاستخلافي، فلا يمكن أن يتحقق عمران إسلامي إنساني عالمي دون تجديد لوعي الأمة أفراداً وجماعات بمقتضيات الاستخلاف، ومهام الخيرية والوسطية والشهادة، فهذه الأخيرة بقدر ما هي خصائص للأمة أصبحت اليوم أمام حالة التراجع والوهن الحضاري واجبات ومهام وفروض الوقت التي لا تقبل التأخير أو التأجيل، كما أن إحكام الفقه السنني شرط في تجديد الوعي الاستخلافي.

وقد أكد القرآن المجيد على "أن الساحة التاريخية لها سنن ولها ضوابط كما يكون هناك سنن وضوابط لكل الساحات الكونية الأخرى. وهذا المفهوم القرآني يعدّ فتحاً عظيماً للقرآن الكريم... لأننا في حدود ما نعلم، أن القرآن أول كتاب عرفه الإنسان،

أكد على هذا المفهوم، وكشف عنه وأصر عليه، وقاوم بكل ما لديه من وسائل الإقناع والتفهيم النظرة العفوية أوالنظرة الغيبية الاستسلامية في تفسير الأحداث،... ونبه العقل البشري إلى أن هذه الساحة لها سنن، ولها قوانين، ولكي تستطيع أن تكون انساناً فاعلاً مؤثراً لا بد لك أن تكتشف هذه السنن، وتتعرف تلك القوانين، لكي تستطيع أن تتحكم فيها وإلا تحكمت هي فيك... هذا الفتح القرآني الجليل هو الذي مهد إلى تنبيه الفكر البشري بعد ذلك بقرون إلى أن تجرى محاولات لفهم التاريخ فهماً علمياً بعد نزول القران بثمانية قرون بدأت هذه المحاولات على ايدي المسلمين انفسهم، فقام ابن خلدون بمحاولة لدراسة التاريخ وكشف سننه وقوانينه، ثم بعد ذلك بأربعة قرون -على أقل تقدير- اتجه الفكر الاوربي في بدايات مايسمى بعصر النهضة، نحو تجسيد هذا المفهوم الذي ضيعه المسلمون، حيث لم يتوغلوا إلى أعماقة، وبدأت لدى الغربيين أبحاث متنوعة ومختلفة حول فهم التاريخ، وفهم سننه."[1]

ويتضمن هذا الفصل حديثاً عن السنن الإلهية من حيث حجيتها وأقسامها وخصائصها، ومن حيث مواردها وأصولها وطرائق استنباطها، مع إفراد موضوع أخير نبرز من خلاله أهمية وضرورة الفقه السنني وأثره في تجديد الوعي الاستخلافي.

أولاً: حجية السنن الإلهية وأقسامها وخصائصها

١- حجية السنن:

تستمد السنن حجيتها من ربانيتها، فمصدرها ومدبرها هو الله تعالى، فهي الدالة عن أوامره وأحكامه التكوينية في الخلق والنشأة والمصير ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]، والخلق والأمر الإلهيان منزهان عن العبث ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨ - ٣٩]، قال محمد الصادق عرجون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وتختص آية الدخان هذه

(١) الصدر، محمد باقر. **السنن التاريخية في القرآن**، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص٦٢-٦٣.

بلطيفة قرآنية تؤكد قيام النظام الكوني على السنن الإلهية، وذلك في نفي اللعب عن خلق السماوات والأرض، وذلك يعني نفي الفوضى التي تعتمد المصادفات العمياء"[1] وفي سورة طه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠]. والحق والقدر والهدى معالم دالة على سننية كونية وإنسانية تحكم حركة الكون والنفس والمجتمع، تنفي عنها التفاوت ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ ﴿٣﴾﴾ [الملك: ٣]، والعبث، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، في تعادلية وتوازن واتساق وإحكام أحكم الحاكمين تفيض بعظمة الله وحكمته البالغة، وبأنها منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الذي خلق السنن وجعل كل خلقه وأمره في سماواته وأرضه وما بينهما يجريان عليها ولا يحيدان عنها تدبيراً وتقديراً، وحكمة وعدلاً، وإرادة وفضلاً.

ولذلك أرشد الله الناس جميعاً إلى السنن فهماً واستكشافاً وتحكماً واستثماراً وتفعيلاً، وجعلها بياناً لهم بقوله عَزَّوَجَلَّ ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨] وهو "إرشاد عام إلى أن جريان الأمور على السنن المطردة حجة على جميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، تقيهم وفاجرهم"[2] فالسنن الجارية حجة على الخلق وبرهان على رحمة الله بهم حيث أجرى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخلق كله عليها، وهم مطالبون بمشاهدتها حساً ونظراً واستبصاراً.

وحجية السنن مستمدة أيضاً من دعوة القرآن إلى السير في الأرض، والنظر في تاريخ الأمم وأحوال الحضارات، استدلالاً على وجود السنن وحاكميتها وفاعليتها التي متى استجمعت شروطها وأسبابها، وصرفت موانعها تحقق وعد الله الذي لا يتخلف وكلماته التي لا مبدل لها؛ نصراً وانكساراً، تمكيناً واستضعافاً، نهوضاً

---

(١) عرجون، محمد الصادق. **سنن الله في المجتمع من خلال القرآن**، جدة: منشورات العصر الحديث، (١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ص١٦.

(٢) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٤، ص١٤٣.

وسقوطاً، عمراناً وخراباً. وهكذا جعل الله تعالى كتابه المسطور وكتابه المنظور وكتابه المستور[1] هدايات دالة على حجية السنن. ولعل حجية السنن من جهة ربانيتها يجعلها حاملة لأبعاد إيمانية عقدية منسجمة مع مقتضيات الفطرة ومقصدية الخلق حيث إنها أقدار الله وحكمته ومشيئته التي أراد هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن تكون عليها ظواهر الكون ووقائع التاريخ وأحوال النفس والمجتمع، ذلك أن "الأقدار الإلهية هي السنن التي يقوم بها النظام"[2] والإيمان بها جزء من التصديق بالوحي وتسليم له مع تأكيد البرهان عليها والدليل على وجودها، وصحتها بالنظر العقلي، والمنهج الحسي التجريبي، وقواعد النقد التاريخي، ومناهج علوم الاجتماع. كما أن إنكارها هو إنكار لما أثبته الوحي وعناد للحق واستكبار في الأرض وعماية عن رؤية حقائق الأمور. يقول باقر الصدر: "هذا التأكيد من القرآن على ربانية السُّنة التاريخية، وطابعها الغيبي، يستهدف ربط الإنسان، حتى حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون، بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى. وإشعار الإنسان بأن الاستعانة بالنظام الكامل لمختلف الساحات الكونية، والاستفادة من مختلف القوانين والسُّنن التي تتحكم في هذه الساحات، ليس ذلك انعزالاً عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، لأن الله يمارس قدرته من خلال هذه السُّنن. ولأن هذه السُّنن هي إرادة الله، وهي ممثلة لحكمة الله وتدبيره في الكون."[3]

وحجية السنن إما أن تكون حجية ثبوت أو حجية دلالة:

---

(١) لا يخفى أن الكتاب المسطور هو القرآن، والكتاب المنظور هو الكون، ونضيف هنا الكتاب المستور ونقصد به كل ما تعلق بالغيب سواء ارتبط بالنفس أم المجتمع أم الكون، وهو كتاب تتداخل وتتجاور فيه ثنائية الغيب والشهادة، حيث يكون العقل المسلم مدفوعاً برؤية القرآن التوحيدية الكونية إلى تبصر سنن الله وآياته وراء حجب الغيب الممكن كشفه، ليصير جزءاً من عالم الشهادة، فيخرج بذلك من كونه مستوراً إلى كونه مكشوفاً بادياً هادياً لإقامة العمران البشري على قيم حاكمة ومقاصد مرشدة ومنظومة سننية ضابطة.

(٢) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٤، ص١٦٧.

(٣) الصدر، **السنن التاريخية في القرآن**، مرجع سابق، ص٦٨.

أ- حجية ثبوت السنن الإلهية:

إذا كان النص القرآني نصاً قطعي الثبوت لا مرية في ذلك، وأنه هو الوحي الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمداً ﷺ، وأمرنا بالتعبد بتلاوته وتدبره والعمل به والدعوة إليه، وحيث إن السنن الإلهية -ومنها سنن العمران البشري- قد أشار إليها القرآن ونبه عليها ودعا إلى التفكر فيها وإعمالها في بناء النفس والمجتمع والأمة والحضارة، فإنها صارت بذلك قطعية الثبوت لا ريب في حجيتها الثبوتية، فقطعيتها تستمدها من قطعية ثبوت القرآن، وحجيتها تستمدها من ذكر القرآن لعدد من السنن النفسية والاجتماعية والحضارية، ودعوته إلى تأملها والنظر فيها تحققاً بمقتضياتها الباعثة على الاعتبار والاستثمار السنني الذي يحقق أعلى درجات الاستخلاف والعمران. ومن جهة أخرى، فإن القرآن الكريم هو خطاب إلهي عالمي ختم الله به كتبه ورسالاته، ومن حيث اتصافه بالعالمية والخاتمية جاء القرآن المجيد حاملاً لمنظومة سننية حاكمة وهادية إلى إقامة عمران إنساني عالمي راشد لا يحتاج معها إلى توجيه آخر من السماء أو وحي جديد يبعث الله به نبياً من أنبيائه، فهذا القرآن بصريح كلام الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ۝٩﴾ [الإسراء: ٩] ومن هداياته الهداية السننية التي بثها الله تعالى في كتابه، ويمكن عدّها المعادل الموضوعي لأحكامه التشريعية، ولآياته الكونية في تعادلية هي دليل إعجاز وسبيل هداية. وقد نسب الحق تعالى السنن إلى نفسه في كتابه العزيز وأضافها إليه في مواضع كثيرة من آياته، وحتى تلك التي جاءت بصيغة"سنة الأولين" فالمقصود سنة الله وإنما أضيفت إليهم لما بينهما من الملابسة الظاهرة كما ذكر ذلك شهاب الدين الآلوسي (توفي: ١٢٧٠هـ) وغيره، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن موارد لفظ السنة في القرآن.

ب- حجية دلالة السنن الإلهية:

آيات القرآن العظيم إما قطعية الدلالة أوظنية الدلالة، واستقراء نصوص القرآن يظهر ورود السنن فيها وروداً قطعي الدلالة لا تحتمل ألفاظها غير معانيها، سواء تلك

التي جاء فيها لفظ السنة والسنن مصرحاً به تعقيباً على تجارب تاريخية لحضارات وأمم سابقة، أو تلك التي قصت قصص الأولين وأحوالهم مع أنبيائهم وما كان من مخالفتهم لسنن الله في النفس والمجتمع والحضارة، فأصابهم ما أصابهم وجعلهم الله محل الاعتبار وضرب بهم الأمثال.

فالاستدلال بسنن الله الواردة في القرآن أو تلك التي يكتشفها العقل البشري وفق منهجية القرآنية المعرفية استدلال قطعي؛ لأن الدليل السنني دليل قطعي، والدليل إن كان مؤلفاً من القطعيات ترتب عنه قطعية المدلول، وفي ذلك يقول ابن تيمية: "وأما الاستدلال بسنته وعادته فهو أيضاً طريق برهاني ظاهر لجميع الخلق، وهم متفقون عليه من يقول بالحكمة ومن يقول بمجرد المشيئة، فإنه قد علم عادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في طلوع الشمس والقمر والكواكب والشهور والأعوام، وعادته في خلق الإنسان وغيره من المخلوقات، وعادته فيما عرفه الناس من المطاعم والمشارب والأغذية والأدوية ولغات الأمم؛ كالعلم بنحو كلام العرب، وتصريفه، والعلم بالطب، وغير ذلك. كذلك سنته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الأنبياء الصادقين وأتباعهم، وفيمن كذبهم أو كذب عليهم فأولئك ينصرهم ويعزهم، ويجعل لهم العاقبة المحمودة، والآخرون يهلكهم ويذلهم، ويجعل لهم العاقبة المذمومة، كما فعل بقوم نوح وبعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون وقومه، وكما فعل بمن كذب محمداً من قومه قريش ومن سائر العرب وسائر الأمم غير العرب، وكما فعل من نصر أنبيائه وأتباعهم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [غافر: ٢١-٢٢] ... وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين وهو الاعتبار المامور به

في القرآن كقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١] وإنما تكون العبرة به بالقياس والتمثيل... جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أن من صدقهم كان سعيداً ومن كذبهم كان شقياً، وهذه سنة الله وعادته في تحقيق عادته وسنته، وأنه لا ينقضها ولا يبدلها."[1]

ولا سبيل إلى التمييز بين السنن الاجتماعية والآيات الكونية من حيث الاستدلال والاحتجاج، جرياً على عادة التجريبيين الماديين الذين أثبتوا حجية ما يكتشفون من قوانين علمية مادية تحكم حركة الكون، ونفوا في مقابل ذلك أن تتمتع مناهج العلوم الاجتماعية بالعلمية والموضوعية في مقاربة، واكتشاف ما يحكم ظواهر الاجتماع من قوانين بحسب اصطلاحهم، ولأنهم مفتقرون إلى رؤية القرآن وهدايته السننية لم يستطيعوا أن يدركوا حقيقة قرآنية عظيمة جلاها الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في كتابه حين قرن في كثير من آياته بين الحديث عن الآيات الكونية والحديث عن سنن الله التاريخية والاجتماعية بما يفيد اشتراكهما في مناط الاستدلال وقوة الاحتجاج، وتوحدهما في الدلالات والمعاني، والآيات القرآنية في ذلك كثيرة مثل: الآيات [٢٦-٢٨] من سورة الحجر، و[٣٧-٤٠] من سورة الدخان، و[١١-١٦، و٣٠-٣٥] من سورة الأنبياء، و[٦٠-٦٦] من سورة الحج، و[٢٣-٢٧] من سورة السجدة،... قال ابن عاشور في تفسيره لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [الحج: ٦١]: "لا عجب في النصر الموعود به المسلمون على

(١) الحراني، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. **النبوات**، القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٨٦هـ، ص٢٦٧- ٢٧٢.

الكافرين مع قلة المسلمين، فإن القادر على تغليب النهار على الليل حيناً بعد أن كان أمرهما على العكس حيناً آخر قادر على تغليب الضعيف على القوي، فصار حاصل المعنى: ذلك بأن الله قادر على نصرهم. والجمع بين ذكر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل للإيماء إلى تقلب أحوال الزمان فقد يصير المغلوب غالباً، ويصير ذلك الغالب مغلوباً. مع ما فيه من التنبيه على تمام القدرة بحيث تتعلق بالأفعال المتضادة ولا تلزم طريقة واحدة كقدرة الصناع من البشر. وفيه إدماج التنبيه بأن العذاب الذي استبطأه المشركون منوط بحلول أجله، وما الأجل إلا إيلاج ليل في نهار ونهار في ليل.

وفي ذكر الليل والنهار في هذا المقام إدماج تشبيه الكفر بالليل والإسلام بالنهار، لأن الكفر ضلالة اعتقاد، فصاحبه مثل الذي يمشي في ظلمة، ولأن الإيمان نور يتجلى به الحق والاعتقاد الصحيح، فصاحبه كالذي يمشي النهار. ففي هذا إيماء إلى أن الإيلاج المقصود هو ظهور النهار بعد ظلمة الليل. أي ظهور الدين الحق بعد ظلمة الإشراك. ولذلك ابتدئ في الآية بإيلاج الليل في النهار؛ أي دخول ظلمة الليل تحت ضوء النهار"[1] نقول ذلك مع إدراكنا للفوارق الموجودة بين الظاهرة الإنسانية الاجتماعية والظاهرة المادية الكونية من حيث طبيعة موضوعهما، وخصائصه، وبنيته الداخلية، ومنهج اكتشاف ما يتحكم فيه.

٢- أقسام السنن:

الناظر في إنتاجات علماء المسلمين ومفكريهم ممن كتبوا دراسات حول المسألة السننية وأشاروا إلى أقسام السنن يقف على الملحوظات الآتية:

- لم يفرد جل هؤلاء المفكرين مبحثاً خاصاً بأقسام السنن، وإنما جاء الحديث عنها عرضاً.

- لم يقدم الباحثون والمفكرون الذين أسهموا بدراسات سننية مبررات معرفية

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١٨، ص٣١٥.

ومنهجية مستمدة من الرؤية القرآنية لوجهات نظرهم حول أقسام السنن وأنواعها، وهو ما انعكس سلباً على استعمالهم لمفاهيم ومصطلحات تتناقض في دلالاتها مع الرؤية القرآنية لموضوع السنن.

- إن الملاحظتين السابقتين نتج عنهما ارتباك وقلق يشعر به القارئ المتتبع للمسألة السننية حيث يعثر على عدم ضبط دقيق في استعمال أقسام معينة للسنن، فتارة يحدثك الباحث عن سنن كونية واجتماعية، وتارة يسميها قوانين كونية واجتماعية، والفرق بينهما واضح كما أشرنا إليه، وتارة أخرى يستعمل تقسيم السنن المادية والسنن التاريخية... وكأن الأمر سيان.
- يبدو من خلال تتبع هذه الدراسات أن السبب في الاختلاف الحاصل في تقسيماتهم لأنواع السنن راجع إلى المعيار الضمني -الذي بدا للباحث دون أن يصرح به- الذي يحكم هذا التقسيم، وإلى أساسه المعرفي، وما سيحققه من صلاحية و وجاهة تخدم المقصد الذي يراه الباحث.

ويمكن الإشارة إلى جملة من هذه التقسيمات مع الكشف عن المنطلق الذي يبدو أنه يتحكم فيه وإن لم يشر إليه الباحث مباشرة:

أ- السنن الجارية والسنن الخارقة:

وينبني هذا التقسيم على معيار اطراد السنن أو عدم اطرادها، ويقصد بالسنن الجارية ما جرى من أمر الله وفعله على نظام مطرد لا تتخلف نتائجه عن أسبابه، أما السنن الخارقة فهي التي تخرق ذلك النظام وتعطله بسبب تحكم المشيئة الإلهية المطلقة ويدخل ضمن ذلك المعجزة، وهذا يعني أن الله تعالى يخرق السنة الجارية بإرادته و وفق حكمته.

وممن سار على هذا التقسيم طه دسوقي حبيشي في كتابه "الهجرة بين سنن الله الجارية وسننه الخارقة"، ومحمد قطب في كتابه "مفاهيم ينبغي أن تصحح،"[1] وعمر

(١) قطب، محمد. **مفاهيم ينبغي أن تصحح**، القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٩٨٧م، ص٢٦٢.

عبيد حسنة في مقدماته لبعض كتب الأمة مثل مقدمة كتاب "المنهج النبوي والتغيير الحضاري"[1] ومجدي محمد محمد عاشور في رسالته لنيل أطروحة دكتوراه حيث قال: " لله عَزَّوَجَلَّ في خلقه قسمان من السنن: أحدهما: السنن الجارية: وهي تلك القوانين التي تحكم نظام الدنيا ونراها منتشرة في الكون، وفي الحياة، وفي سلوك الإنسان، على السواء... ثانيهما: السنن الخارقة: وهي تلك القوانين الجارية على خلاف السنن المعروفة للبشر. فالله عَزَّوَجَلَّ له من طلاقة القدرة بحيث يخلي الظاهرة عن القانون الذي يحكمها، سواء أكان ذلك في الطبيعة، أم كان في الأحياء، أم كان في الاجتماع والسلوكات"[2] وبين أن السنن الكونية والاجتماعية والتاريخية والنفسية والأخلاقية سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات أو الأمم مندرج ضمن السنن الجارية.

وعيب هذا التقسيم هو أنه تبنى معيار اطراد السنن أو عدمه، على أن من خصائص السنة الاطراد والجريان، وأن يجري الله كونه بما فيه على نظام محكم أخبر به الإنسان صدقاً وعدلاً ليتم على أساسه الحساب والجزاء، أما خرق الله تعالى لهذه السنن، فهو استثناء لتصحيح مسار التاريخ وإنقاذ الإنسان من آثار الاستضعاف والاستكبار والطغيان، وهو استثناء لا يخرم السنن الجارية وإنما يؤكدها، فالسنن الجارية أصل وخرقها استثناء، وهو المعنى الذي أشار إليه محمد قطب بقوله: " ومع أن لله سنناً خارقة تملك أن تصنع كل شيء، ولا يعجزها ولا يقيدها شيء؛ لأن مشيئة الله طليقة من كل قيد، إلا أن الله جلت قدرته قد قضى بأن تكون سنته الجارية ثابتة في الحياة الدنيا، وأن تكون سنته الخارقة استثناء لها وكلتاهما معلقة بمشيئة الله. لذلك كان في حسهم أنه لا بد لهم من مجاراة السنن الجارية إذا رغبوا في الوصول إلى نتيجة معينة في واقع حياتهم؛ أي إنه لا بد من اتخاذ الأسباب المؤدية إلى النتائج بحسب تلك السنن

---

(١) حسنة، عمر عبيد. **من فقه التغيير: ملامح من المنهج النبوي**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، ص٣١-٩٧.

(٢) عاشور، **السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم؛ أصول وضوابط**، مرجع سابق، ص٣٧-٣٨.

الجارية،"[1] بل نذهب إلى القول: إن ما يسميه هؤلاء بالسنن الخارقة يجري هو نفسه على نظام مطرد ومحكم، وإن كانت هذه السنن الخارقة نادرة الوقوع. والذي يتأمل سيرة النبي ﷺ يقف على حقيقة هذا المعنى الذي لا يمكن لأحد أن يفصل فيه أو يميز بين سنة جارية وسنة خارقة، مثلاً قصة الهجرة وأحداث الغزوات... وهو جزء من المنظومة السننية الرباعية وفق المرجعية الإسلامية وتحديداً منظومة الهداية ومنظومة التأييد التي سيتم الحديث عنها لاحقاً. وإن تعجب فاعجب لقول عاشور وهو يقدم مثال غزوة بدر نموذجاً لتدخل السنن الخارقة ويعلق عليه: "والنبي ﷺ يدرك أن الله لو تركهم يتعاملون مع سنة الله في الكون لكانت الغلبة للأعداء فهم أكثر عدداً وعدة"[2] فهل نصر الله للجماعة المسلمة الأولى كان خارج سننه في الكون والمجتمع؟ أليس إمداد الله تعالى المؤمنين بالملائكة سنة من سننه الجارية في تمكين رسالات أنبيائه ونصر أوليائه؟ يقول الفخر الرازي: " فجعل مجيء خمسة آلاف من الملائكة مشروطاً بثلاثة أشياء: الصبر والتقوى ومجيء الكفار على الفور، فلما لم توجد هذه الشرائط لا جرم لم يوجد المشروط"[3] فالمشروط هنا هو الإمداد الرباني، والشرائط جزء من السنن. ولذلك فإن الإمداد الرباني الغيبي هو إمداد محكوم بسنة الله تعالى في النصر والتمكين، هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد أن يجريه وفق سننه كي يسعى البشر إلى اكتشافها واستثمارها لينالوا وعد الله بالنصر والتمكين.

ب- سنن عامة وسنن خاصة:

ينبني هذا التقسيم على معيار الخصوص والعموم، فثمة سنن تجري بشكل عام تنفذ ولا تتخلف، وما يبدو أنه يتخلف منها أو يزعم زاعم أنها غير نافذة هي في حقيقتها سنن خاصة تجري وفق نظام أراده الله تعالى لخلقه. ولذلك أدرك محمد الصادق

---

(١) قطب، **مفاهيم ينبغي أن تصحح**، مرجع سابق، ص٢٦٢.

(٢) عاشور، **السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم؛ أصول وضوابط**، مرجع سابق، ص٤٧.

(٣) فخر الدين الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج٨، ص٢٢٨.

ابراهيم عرجون المعنى الذي غفل عنه مجدي عاشور الآنف الذكر فمال رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى اعتماد التمييز بين سنن عامة وسنن خاصة، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " فإذا رميت بسهم التأمل ومعرفة اقتدار الله تعالى وقهره لكل مخلوق له من مادة أو نظام... آمنت بأن لله تعالى في عظمة اقتداره وقهر سلطانه سنناً خاصة لها أسبابها ومناسباتها وأزمانها وأحداثها ودواعيها؛ لأن الألوهية الحقة القاهرة القادرة المدبرة الحكيمة لا تقيدها سنن مخلوقة لها مرئية أو معلومة لدى العقول أو معتادة في متعارف الحياة ومألوفاتها، بل إن هذه الألوهية الحقة تقتضي أن يكون الإطلاق الكامل حقاً لها في مشيئة كينونة ما تشاء كونه. ولكن ذلك يجري على نظام خاص مقدر -وهو ما سميناه بالسنن الخاصة التي تقتضيها مناسباتها في أزمانها وأشخاصها وأحداثها-"[1] كما يوظف الصادق عرجون هذا التقسيم للتمييز بين سنن الله الكونية العامة وسنن الله الخاصة[2] في المجتمع البشري.

ت- السنن الكونية الآفاقية والسنن الاجتماعية:[3]

وينطلق هذا التقسيم من معيار طبيعة السنن وأبعادها، سواء ماتعلق منها بالبعد المادي أو الاجتماعي. ويقصد بالسنن الكونية تلك التي يجري عليها نظام الكون

---

(١) عرجون، محمد الصادق. **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، دمشق: مؤسسة القلم، ط٣، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م)، ج٢، ص٣٤٤.

(٢) عرجون، **سنن الله في المجتمع من خلال القرآن**، مرجع سابق، ص٢٥.

(٣) ذهب إلى ذلك كل من: عمر عبيد حسنة في بعض كتاباته وكذا مقدماته لبعض كتب سلسلة الأمة، وعبد الكريم زيدان، وأحمد محمد كنعان، وزياد خليل الدغامين، الذي ذكر للسنن خلال عرضه للسنن الإلهية بوصفها شرطاً في إعمار الكون، وحسين شرفه. وهؤلاء لم يفردوا مبحثاً خاصاً بأنواع السنن وإنما جاء الحديث عنها عرضاً ومتفرقاً، وفي بعض الأحيان مضطرباً، إلا ما كان من بحث حسين شرفه حيث أفرد المبحث الأول من الفصل الثاني في الباب الأول للحديث عن أنواع السنن الإلهية. انظر:

- زيدان، **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، مقدمة الكتاب، ص٧-١٨.
- كنعان، **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**، مرجع سابق، ص ٥٨.
- الدغامين، "إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي"، مرجع سابق، ص٢٣-٦٢.
- شرفه، **سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة**، مرجع سابق، ص٧١-٨٤.

وظواهره، فهي "نواميس الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في تسيير هذا الكون وعمارته"[١] أما السنن الاجتماعية فهي تلك التي يجري عليها نظام المجتمع الإنساني، فهي "السنن أو القواعد الاجتماعية التي تحكم الإنسان في علاقته بهذا الكون وخالقه، وتسمى السنن الاجتماعية أو الإنسانية"[٢] ولعل هذا التقسيم هو الأكثر شيوعاً واستعمالاً بين الباحثين في موضوع السنن، ويستعمل بعض الباحثين ومنهم محمد عز الدين توفيق[٣] وبالمعنى نفسه تعبير السنن الشرعية للدلالة على ظواهر النفس والمجتمع التي ورد في الشرع ذكرها، ودعا إلى الاعتبار بها، واستثمارها توقياً من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السالفة والحضارات الإنسانية عبر التاريخ. ويوظف رشيد رضا[٤] في هذا المعنى تعبير السنن التشريعية في مقابل السنن الكونية، ونفس التعبير أيضاً يستعمله ابن علي الوزير بالإضافة إلى تقسيمه المذكور سابقاً، فيستعمل تعبير السنن الكونية القدرية والسنن التشريعية الهادية ويصف السنن التشريعية بالسنن "الهادية الموضوعة أمام الاختيار الحر للإنسان، والتي على أساسها تكون الحياة الطيبة المطمئنة"[٥] كما يستعمل تعبير السنن المادية والسنن الروحية. ويستعمل محمد الصادق عرجون[٦] سنن الله الكونية

---

(١) شرفه، **سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة**، مرجع سابق، ص٧١.

(٢) المرجع السابق. ص٧١.

(٣) يقول عز الدين توفيق: "السنة في القرآن الكريم إما سنة كونية أو سنة شرعية، فالأولى يسير عليها نظام الكون والأخرى يسير عليها نظام الشرع. واعتماد العلماء الطريقة العلمية في دراسة جميع الظواهر النفسية والاجتماعية مبني على التسليم بأن الظواهر محكومة بسنن، فهناك سنن طبيعية وأخرى اجتماعية يخضع لها الإنسان بصورة صارمة." انظر:

- توفيق، محمد عز الدين. **التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية: البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي**، القاهرة: دار السلام، ط١، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م)، ص٧٥.

(٤) رضا، محمد رشيد. "السنن الكونية والاجتماعية ونظام الكون"، **مجلة المنار**، العدد (١٣٢)، (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م).

(٥) الوزير، **على مشارف القرن الخامس عشر الهجري: دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر**، مرجع سابق، ص١١-١٢.

(٦) عرجون، **سنن الله في المجتمع من خلال القرآن**، مرجع سابق، ص٢٥ وغيرها.

العامة وسنن الله الخاصة في المجتمع البشري.

ث- سنن اختيارية وسنن إجبارية:

يقوم هذا التقسيم على معيار ارتباط السنن بإرادة الإنسان وفاعليته الحرة، وهذا التقسيم هو اختيار إبراهيم بن علي الوزير،[1] وقد تبنى هذا التقسيم محمد هيشور في أطروحته حول السنن في القرآن.[2] ويبدو أن تقسيم الوزير لا يسلم له به، فكيف تكون السنة اختيارية أو إجبارية والسنة أساسها الاطراد فهي لا تتبدل ولا تتحول، إن تعامل الإنسان مع السنن واستثماره لها، أو تعطيله النظر فيها وعدم تسخيرها هو الذي يقال عنه أنه اختيار الإنسان، فالإنسان يختار بإرادته أن يتحرك وفق السنن أو على خلافها، والولادة والحياة والموت وغير ذلك من الأمثلة التي أوردها ابن علي الوزير للدلالة على السنن الإجبارية لا تعدو أن تكون هي أيضاً خاضعة لسنن أرادها الله بمشيئته أن تجري عليها. كمايمكن القول إن كل السنن التي خلقها الله تعالى تجري بإرادة الله على الإنسان متى أقام الإنسان مقدماتها وتحقق بشروطها وصرف موانعها وذلك هو مجال الإرادة الإنسانية بامتياز.

ج- سنن الله في النفس، سنن الله في التغيير الاجتماعي، سنن الله في التداول والتدافع الحضاري:

يتأسس هذا التقسيم على اعتبار معيار موضوع السنن، وأثرها في الفعل والممارسة الإنسانية الفردية والجماعية، كما ارتبط هذا التقسيم بمشروع إعادة تشكيل العقل المسلم، وجعله أكثر اقتداراً على إدارة وتدبير مجالات مشروع البناء الحضاري، واستعادة الأمة لوظيفة الشهادة على الناس. ويحضر هذا التقسيم بكيفية واضحة في دراسات جودت سعيد، و عماد الدين خليل، وعمر عبيد حسنة مثل قوله : "إن القرآن

(١) الوزير، **على مشارف القرن الخامس عشر الهجري: دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر**، مرجع سابق، ص٨-١١.

(٢) هيشور، **سنن القرآن في بناء الحضارات وسقوطها**، مرجع سابق، ص١٥.

والسنة، بسطاً وعرضاً لنماذج منها، كسنة الأجل، وسنة التدافع الحضاري، وسنة التداول، وسنن التغيير الاجتماعي، وسنة التدرج... إلخ، وعدّها أشبه بمعادلات رياضية"[1] وماجد عرسان الكيلاني، وعبد العزيز برغوث،... على اختلاف فيما بينهم على مستوى تخصصاتهم، وجودة أبحاثهم، ودقة نتائجهم، ومدى وضوح الرؤية القرآنية السليمة في أذهانهم.

وتعقب تقسيمات وأنواع السنن في عددٍ من الكتابات قد يطول بنا، ولكن نختصر الكلام حول بعض هذه التقسيمات اختصارا؛ بالإضافة إلى ما تقدم هناك سنن هادية وسنن مدمرة، وهذا من حيث إنها معادلات تلازمية قائمة على العلاقة السببية بين المقدمات والنتائج، فمن أخذ بها هدته إلى النصر والتمكين، ومن تنكب عنها أودت به إلى موارد الهلاك والهزيمة. وهناك سنن نصية وسنن مستنبطة، من حيث ذكرها في القرآن أو عدم ذكرها فيه. وهناك سنن كلية وسنن جزئية، وذلك باعتبار خصوصها وعمومها. وهناك سنن ظاهرة وسنن خفية، بحسب جلائها وغموضها. و سنن فردية وسنن جماعية، بحسب ارتباطها بالإنسان أو المجتمع والأمة.

ومما تجدر الإشارة إليه بعد ذكر ما وقفت عليه من تقسيمات السنن لدى الباحثين المعاصرين أنها تقسيمات وتصنيفات سعى من خلالها أصحابها إلى التمييز الإجرائي والعملي بين مجموعة من السنن، لتمايز طبيعة الموضوع المرتبط بها وخصائصه وما يترتب عن ذلك من أحكام... وعدم انشغالهم بالتوسع فيما عدّوه سنناً كونية أو مادية، في حين انصرف جهدهم في بيان ما عدّوه سنناً اجتماعية أو تاريخية... وقد علقنا على بعض تلك التقسيمات مما ارتأينا التنبيه عليه لعدم كفايتها المعرفية ووجاهتها المنهجية. وقد شدد الطيب برغوث على ضرورة تناول السنن بوصفها منظومة تتسم بالتكاملية والنسقية تتداخل فيها مفردات وعناصر كونية واجتماعية وتاريخية حيث تصدر كلها

(١) حسنة، عمر عبيد. **رؤية في منهجية التغيير**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١٤هـ، ص٣٩.

عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فذكر منظومة سنن التسخير وهي: سنن النفس، وسنن الآفاق، وسنن الهداية، وسنن التأييد، ومنظومة سنن الاستخلاف والتمكين وهي: سنن الله في الابتلاء، والتدافع، والتداول، والتجديد، منبها على خطورة الغفلة عن الاستثمار الشمولي والتحكم التكاملي لعناصر المنظومات السننية الأربع مما يشكل أكبر إعاقة لإنجاح مشاريع الإصلاح والنهضة الحضارية.

وسيتم تفصيل الحديث عن رؤية الطيب برغوث[1] للمنظومة السننية في الفصل الثاني من لباب الثاني. على أننا نرى -كما استنتجنا ذلك سابقاً في الفصل الأول- إطلاق تعبير السنن الكونية تجاوزاً للمصطلح القرآني الذي أكد على وجود آيات الآفاق والأنفس وليس سنن الآفاق والأنفس، وفرق بين السنة والآية، ومواقع اللفظ القرآني محكمة من لدن حكيم خبير. كما أرى أن لفظ السنن ينصرف في حقيقته إلى ما هو اجتماعي وحضاري وتاريخي كما هو واضح من خلال استقراء الآيات القرآنية والنظر في سياقاتها ووحدتها الموضوعية والبنائية.

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الطيب برغوث قد سار في كتاباته الأولى إلى الأخذ بالتقسيم الذي يقوم على التمييز بين "السنن النفسية الاجتماعية... المودعة في الوحي نفسه، ... السنن الكونية، الأخرى في الآفاق والأنفس". كما أشار إلى "السنن الدينية والطبيعية، أو الكونية العامة". وقد كرر هذا الاستعمال في كثير من ثنايا هذا الكتاب متأثراً كما يبدو من إحالاته بـ"جودت سعيد"، لكنه سيطور فيما بعد رؤيته للسنن كما سيبدو ذلك جلياً من خلال كتبه اللاحقة، وسيتبنى فكرة المنظومة السننية المتكاملة كما سنعرض لها لاحقاً.

- برغوث، الطيب. **منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ص١٢٥- ١٢٨.

- برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، مرجع سابق.

- برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية التدافع والتجديد**، مرجع سابق.

- برغوث، الطيب. **الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية**، سلسلة آفاق في الوعي السنني، دمشق: مركز الراية للتنمية الفكرية، ط١، (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م).

- برغوث، الطيب. **حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية**، الجزائر: دار قرطبة، ط١، (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

وبناء على ذلك فإني أرى تخصيص ظواهر المجتمع والأمة والحضارة والتاريخ بلفظ السنن دون ظواهر الكون والمادة والطبيعة، على أنهما معاً خاضعان لنظام إلهي محكم نصطلح عليه في الأولى بالسنن، ونصطلح عليه في الثانية بالآيات. كما أن الإحكام المعرفي والمنهجي للسنن يرتبط في بعض لحظاته ومفاصله بالاستثمار التسخيري للآيات الكونية.

وعليه فإنني أرى -وتأسيساً على ما سبق- أن أنواع السنن يمكن تقسيمها على الشكل الآتي:

أ- سنن اجتماعية:

وهي السنن الحاكمة والناظمة لسير حركة المجتمع بوصفها وحدة حضارية وثقافية خاصة، وهي سنن منتظمة تحكم مجموعة من ظواهر الاجتماع البشري الخاص، وشبكة العلاقات الاجتماعية، والأنساق الثقافية والقيمية، وحينما يأخذ المجتمع بهذه السنن ويسير على منهجها لتحقيق مناط الاستخلاف والقيام بأعباء وظيفة الاستعماركما نص عليها القرآن، وشهدت بها أخبار المجتمعات الإنسانية. فالحديث هنا يقتصر على مجتمع بشري بعينه ينتمي لحضارة تضم مجتمعات متعددة وثقافات فرعية متنوعة، ذلك أن المجتمعات داخل الحضارة الواحدة لا تكون على وتيرة واحدة في التعامل مع السنن واستثمارها، بل تتفاوت قدراتها ووضعياتها الحضارية؛ بحسب مستوى تطورها التاريخي، ودرجة وعي نخبها وقياداتها، وقدرتها على توظيف واستثمار ميزانيتها التسخيرية بعيداً عن التبديد والهدر، ومدى ارتباطها بالمرجعية القيمية والعقدية والمعرفية التي أمر الله تعالى الخلق بالخضوع لها والعمل وفق مقتضياتها، سعياً للتحقق بمعاني العبودية، وتوقياً من الوقوع في قيود الشكية والصنمية المفضية إلى الاستكبار أو الاستضعاف. ويندرج ضمن هذه المنظومة السننية الاجتماعية: سنن البناء الاجتماعي، وسنن الإصلاح الاجتماعي، وسنن الفعالية الاجتماعية، وسنن التعارف والاختلاف.

ب- سنن تاريخية:

وهي السنن الحاكمة والناظمة لحركة التاريخ حيث توجه مساراته عبر الزمان والمكان، وتستوعب الماضي والحاضر والمستقبل، وتحكم بانتظام فاعلية الإنسان دون أن تلغي حريته وإرادته في استثماره لمعطيات الواقع وصناعة التاريخ. فبهذه السنن "تسير حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطئ، وعبر مسالكها "المقننة" التي ليس إلى الخروج عليها سبيل؛ لأنها منبثقة من صميم التركيب البشري، ومعطياته المحورية الثابتة فطرة وغرائز وأخلاقاً وفكراً وعواطف ووجداناً، ومن قلب العلاقات والوشائج والارتباطات الظاهرة والباطنة في العالم الذي يتحرك فيه الإنسان، والتي تتجاوز في اتساعها وشموليتها نسبيات البيئة الجغرافية، أو الوضع الاقتصادي، لكي تتسع للفعل التاريخي نفسه، الفعل القائم على القيم الثابتة الدائمة في كيان الإنسان، والتي تنبثق عنها المواقف التاريخية سلباً وإيجاباً؛ ومن ثم، فإن حكمها على هذه"الحركة" يجيء منطقياً تماماً؛ لأنه أشبه بالجزاء الذي هو من جنس العمل ومن خامه الأصيل، وعادلاً تماماً لأنه يكافئ الإنسان، فرداً وجماعة، بما يوازي طبيعة الدور التاريخي الذي مارسوه، حتى لكأن القرآن يلفت أنظارنا إلى أننا نستطيع أن نرتب على مجموعة معينة من الوقائع التاريخية، سلفاً، نتائجها التي تكاد تكون محتومة لارتباطها الصميم بمقدماتها اعتماداً على استمرارية السنن التاريخية ودوامها"[1] ومن بين هذه السنن التاريخية نذكر: سنة الأجل، سنة الابتلاء، سنن السقوط أو سنة الله في هلاك الأمم، سنة الله في الأسباب والمسببات...

ت- سنن حضارية عمرانية:

وهي السنن الحاكمة والناظمة لحركة الحضارة والعمران الإنساني، والموجهة للمسار الحضاري العام لأمة من الأمم، والمحددة لمصيرها. ويمكن اعتبار هذه السنن

---

(١) خليل، عماد الدين. **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**، بيروت والدار البيضاء: المركز الثقافي العربي والدار العربية للعلوم، ط١، (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ص٢٩.

بمثابة الكليات الكبرىٰ التي يقوم عليها صرح الحضارة، وهي التي تمكن الأمة بعد أن تحيط بها علماً وتسخيراً واستثماراً القيام بوظيفة الشهود الحضاري. ومن بين هذه السنن الحضارية العمرانية: سنن التداول الحضاري، وسنن التدافع الحضاري، وسنن التجديد الحضاري، وسنن النهوض والتمكين.

٣- خصائص السنن وطبيعتها:

خلق الله السنن وبث فيها خصائص وسمات لا تخرج عنها ولا تحيد، تميزها وتتصف بها، وربط استثمار السنن والتحكم فيها بفقه خصائصها ودرك سماتها وصفاتها، والنظر في طبيعتها وحقيقتها، وأنزل القرآن فيه هدىٰ ونور لإحكام هذا النظر وعدم العدول عنه وذلك بتأمل الآيات القرآنية لاستجلاء الصفات التي تحدد السنن وتنفرد بها دون سواها.

ولعل هذا الإخبار القرآني بخصائص السنن فيه هداية للعالمين للنظر في الكتاب العزيز، وتحذير لهم عن عدم الاستخفاف بها أو التهوين من شأن فاعليتها، أو الإعراض عن منهج الله في الكشف عنها واستثمارها. ونميز هنا بين ماهو متعلق بخصائص السنن وما هو متعلق بطبيعتها، ولا شك أن طبيعة السنن مستمدة من خصائصها. وفيما يلي عرض لهذه الخصائص:

أ- الربانية:

إن خصيصة الربانية من أهم وأعظم خصائص السنن التي ينبغي أن تفهم السنن وفقها. والمقصود بربانية السنن أنها مشيئة الله وإرادته وأمره وقدره، فهي من الله تعالىٰ خلقاً وإيجاداً وتقديراً. وقد أثبت الله تعالىٰ في كتابه العزيز نسبة السنن إليه؛ سواء بصيغة ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٤٣، وغافر: ٨٥، والأحزاب: ٦٢، والفتح: ٢٣]، أو صيغة ﴿سُنَّتِنَا﴾ [الإسراء: ٧٧]، أو صيغة ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [فاطر: ٤٣، والأنفال: ٣٨، والحجر: ١٣، والكهف: ٥٥]، أو صيغة ﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، أو صيغة ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: ١٣٧]. وقد سبقت الإشارة إلىٰ أن إضافة سنة أو سنن إلىٰ الأولين أو الذين خلوا

من قبل إنما هي سنة الله والإضافة للملابسة الظاهرة، يقول باقر الصدر: "هذا التأكيد من القرآن على ربانية السُّنة التاريخية، وطابعها الغيبي، يستهدف ربط الإنسان، حتى حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون، بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وإشعار الإنسان بأن الاستعانة بالنظام الكامل لمختلف الساحات الكونية، والاستفادة من مختلف القوانين والسُّنن التي تتحكم في هذه الساحات، ليس ذلك انعزالاً عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ لأن الله يمارس قدرته من خلال هذه السُّنن، فهي إرادة الله، وهي ممثلة لحكمة الله وتدبيره في الكون."(١)

وتحمل هذه الخصيصة بعداً إيمانياً عقدياً تتصف به السنن وتتلبس به. فمن دلالات هذه الخصيصة أنها تربط العبد بربه، وتجعله مشدوداً إليه حيث يكتشف العبد النظام الذي يحكم الحياة البشرية، ويبصر جلال الخالق وجماله وكماله من خلال سيره في الأرض، وكشفه للسنن والعمل بمقتضاها، فيتحرر من كل تفسير خرافي أو أسطوري أو علمي وضعي يقع أسير أوهام الصدفة أو قدرة الطبيعة على الفعل بذاتها. ويتفرع عن كون السنن ربانية أنه لا يتم فهمها والكشف عنها إلا بمنهج رباني وإلا صرفت أنوارها وأسرارها عن العقل والجهد البشري.

ولأنها ربانية فلا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ إذ هي مقدرة من لدن حكيم عليم خبير، وهي مبرأة من كل عيوب مناهج العلوم الاجتماعية والإنسانية -المعرضة عن منهج الله ورؤية القرآن- التي ما فتئ كل منهج يلعن أخاه في سعيه لمعرفة ما يحكم ظواهر المجتمع من سنن. إن الله هو خالق السنن ومدبرها ومصرفها، فلا يمكن نزع الطابع الغيبي عنها، فتدخل الغيب حاسم في خلق السنن وإيجادها وتأثيرها. لكن قد يتوهم بعضهم أن في هذا الحديث نوعاً من السقوط في التفسير اللاهوتي للتاريخ مما يرد معه احتمال إلى الذهن يقضي بابتعاد الرؤية القرآنية عن التفسير العلمي للوقائع التاريخية، وصرف حركة التاريخ عن مسارها الموضوعي.

---

(١) الصدر، **السنن التاريخية في القرآن**، مرجع سابق، ص٦٨.

وهي شبهة مردودة، ذلك أن "الاتجاه اللاهوتي يتناول الحادثة نفسها، ويربط هذه الحادثة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قاطعاً صلتها مع بقية الحوادث، فهو يطرح الصلة مع اللهّ بديلاً عن صلة الحادثة مع بقية الحوادث التي تزخر بها الساحة التاريخية والتي تمثل السنن والقوانين الموضوعية لهذه الساحة، بينما القرآن الكريم لا يسبغ الطابع الغيبي على الحادثة بالذات، لا ينتزع الحادثة التاريخية من سياقها ليربطها مباشرة بالسماء، ولا يطرح صلة الحادثة بالسماء كبديل أوجه الانطباق والعلاقات والأسباب والمسببات على هذه الساحة التاريخية، بل إنه يربط السنة التاريخية بالله، يربط أوجه العلاقات والارتباطات، فهو يقرر أولاً ويؤمن بوجود روابط وعلاقات بين الحوادث التاريخية، إلاّ أن هذه الروابط والعلاقات بين الحوادث التاريخية هي في الحقيقة تعبير عن حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحسن تقديره وبنائه التكويني للساحة التاريخية"[1] فالمقاربة اللاهوتية للتاريخ مقاربة حتمية جبرية قسرية تعطل الإرادة الإنسانية وتنفي مبدأ السببية والعلية، أما المقاربة المادية الوضعية فتطغى عليها النسبية والذاتية والتجزيئية، أما التفسير الإسلامي للتاريخ فمستمد من رؤية القرآن الإنسانية والكونية التي تتكامل فيها قوى التاريخ الظاهرة والخفية، المادية والغيبية، وتظهر فيها مشيئة الله من خلال إرادة الإنسان وحريته.

إن ربانية السنن تكشف لنا عن أنها مصدر هداية للإنسان في عمارة الأرض، وتصله بوحي السماء، إنها صلة وصل عالم الغيب بعالم الشهادة، وهي مع ذلك "لاتحكم على واضعها ومدبرها، وإنما هو الحاكم المتصرف بها"[2] من حيث إنه هو واضعها وخالقها.

ب- عدم التبديل وعدم التحويل (ثبات السنن):

لما كانت السنن حكمة الله وقدره وعدله، ولما تنزه فعله تعالى عن العبث واللعب،

---

(١) المرجع السابق، ص٦٩.

(٢) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص٣١٥.

وكان مناط إعمار الأرض وتحقيق مهمة الاستخلاف والقيام بوظيفة التسخير مشروطاً بالإتيان بها وعدم مخالفتها، وأن مجاوزتها يحصل بموجبه وعيد الله بالهلاك الحضاري للمجتمعات والأمم، فلا وجود لمسوغ شرعي أو عقلي يقضي بجعل هذه السنن متبدلة متحولة، فهي تجري منذ بدء الخليقة إلى قيام الساعة، جرياناً يمتد في الزمان والمكان، وكما جرت على الأولين فهي تجري على الآخرين. إن ثبات السنن ودوامها حقيقة قرآنية وتاريخية وحضارية، شهدت بها الآيات والوقائع وطبائع العمران التي أوردها القرآن الكريم نفسه من خلال قصص الأولين وأحوال الأنبياء مع أقوامهم وما جرى لهم من عقاب الله جزاء تكذيبهم إياهم. ودليل خصيصة الثبات قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة فاطر: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٧٧]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٢]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح: ٢٣]. فهذه أربعة مواضع ذكر الله فيها صراحة نفي تبديل أو تحويل السنن عن مسارها الذي أراده الله تعالى وأقام به عدله في وعده ووعيده، وإقامة سلطان حضارة وإذلال أخرى جرياً على عادته الثابتة في خلقه. وقد ذكر المفسرون في شرحهم لمعنى التبديل والتحويل الفرق بين المعنيين استناداً إلى ما ذهب إليه اللغويون في أن التبديل تغيير الشيء عن حاله، أما التحويل فهو التنقل من موضع إلى آخر. يقول ابن تيمية :" (فالتبديل): أن تبدل بخلافه، والتحويل أن تحول من محل إلى محل؛ مثل استفزازه -أي استفزاز الكفار لرسول الله ﷺ- من الأرض ليخرجوه؛ فإنهم لا يلبثون خلفه إلا قليلاً، ولا تتحول هذه السنة بأن يكون هو المخرج وهم اللابثون، بل متى أخرجوه خرجوا خلفه، ولو مكث لكان هذا استصحاب حال، بخلاف ظهور الكفار فإنه كان تبديلاً لظهور المؤمنين، وظهور الكفار إذ كان لا بد من أحدهما. وأما أهل المكر السيئ والكفار فهي سنة تبديل، لا بد لهم من العقوبة لا يبدلون بها غيرها، ولا تتحول عنهم إلى المؤمنين، وهو وعيد لأهل المكر السيء أن لا يحيق إلا بأهله، ولن يتبدلوا به خيراً:

يتضمن نفياً وإثباتاً، فلهذا نفى عنه التبديل والتحويل."[1]

وقد جاءت الآية بلفظ التبديل والتحويل نكرة، والنكرة في سياق النفي تعم كما قررت ذلك القاعدة الأصولية اللغوية، فلا قيد زماني أو مكاني، وإنما النفي مفيد للتأبيد المطلق في هذه الحياة. ويدل ذلك على "أن الله لا يخالف سنته لأنها مقتضى حكمته وعلمه فلا تجري متعلقاتها إلا على سَنن واحد، والمعنى: لن تجد لسنن الله مع الذين خَلَوْا من قبل ولا مع الحاضرين ولا مع الآتين تبديلا"[2] كما أن الآية خصت كلاً من التبديل والتحويل بنفي مستقل، وتكرر ذلك مرتين ليفيد زيادة في المعنى، ويحصل بذلك اليقين التام، وتتأكد أهمية خصيصة الثبات والدوام، أو خصيصة عدم التبديل وعدم التحويل، ورسوخها عبر التاريخ حاضراً وماضياً ومستقبلاً.

ولعل ثبات السنن ودوامها يجعل العقل البشري مطمئناً إليها، ساكناً إلى نتائجها، معتبراً بما حصل لغيره حذراً من أن يصيبه ما أصابه. ولذلك كان لثبات السنن حكم ربانية من بينها:

- اطمئنان الإنسان بربه وحصول اليقين بوعده ووعيده من حيث إن ثبات السنن ودوامها دال على عدله تعالى، وأنه أقام نظام الخلق على الارتباط بين الأسباب والمسببات، ورتب على المقدمات حصول النتائج "حتى لكأن القرآن يلفت أنظارنا إلى أننا نستطيع أن نرتب على مجموعة معينة من الوقائع التاريخية، سلفاً، نتائجها التي تكاد تكون محتومة لارتباطها الصميم بمقدماتها اعتماداً على استمرارية السنن التاريخية ودوامها. وعلى العكس، فإن أي تأخر أو اهتزاز في نفاذ هذه السنن، سوف يؤول إلى تمييع الحركة التاريخية، وعدم انضباطها جزائياً، ومن ثَمَّ يؤول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل... ومن أجل أن نطمئن يبين لنا القرآن في أكثر من موضع ثبات

---

(١) الحراني، **رسالة في لفظ السنة في القرآن**، مرجع سابق، ص٥٥-٥٦.

(٢) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١١، ص٣٢٦.

هذه السنن ونفاذها وعدم تبدلها أو تحولها."[1]

- إن لمسار التاريخ وحركة نهوض الحضارات وسقوطها معاني تستنبط بالاستقراء، وقواعد تكتشف بالتأمل والنظر، فيحصل بهذا الثبات والدوام مقصود الاعتبار، قال ابن تيمية: " فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم، فإن ذلك لا ينقض، ولا يتبدل، ولا يتحول، بل هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يفوِّت بين المتماثلين، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل. كما أن من سننه التفريق بين المختلفين، كما دل على ذلك القرآن؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم: ٣٥]، ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس، واطراد فعله وسنته؛ لم يصح الاعتبار بها. والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن وهي كثيرة."[2]

- إضفاء طابع التوازن والمعقولية والموضوعية والعلمية على وقائع التاريخ، ونشوء الحضارات وسقوط الأمم والمجتمعات، ذلك أن "ثبات السنن وعدم تبدلها وتحولها يعطي... توازناً واستقراراً، ولولا هذا الثبات لكنا بصدد عالم هلامي لا يثبت على حال، وإذاً لكانت الفوضى العارمة ...، وهذا محال ومستحيل في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠]، والذي ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ فبسبب الاستقرار والتوازن اللذين يضفيهما ثبات سنن الله تعالى وعدم تبدلها وتحولها أمكن استغلال تلك السنن والتعامل بمقتضاها"[3] والقرآن حينما يقرر ثبات السنن وديمومتها فليس فقط بهدف إبراز طابع التوازن والمعقولية في وقائع التاريخ،" ولكنه يحولها في الوقت نفسه إلى دافع حركي يفرض على الجماعة المؤمنة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار، وأن تحسن التعامل مع قوى الكون

(١) خليل، **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٢٩.

(٢) الحراني، **رسالة في لفظ السنة في القرآن**، مرجع سابق، ص٥٥.

(٣) شرفه، **سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة**، مرجع سابق، ص١٥٢.

والطبيعة، مستمدة التعاليم والقيم من حركة التاريخ نفسه."[1]

- تمكين الإنسان من الظفر بمعرفة سننية تجعله أكثر اقتداراً على القيام بمهمة الاستخلاف والتسخير والعمران. ولذلك كان ثبات السنن ودوامها سبيلاً لتشكيل عقلية سننية تجعل من النظر إلى الأشياء والظواهر نظراً تحليلياً تركيبياً تعليلياً استنتاجياً، وترى "الأمور لا تمضي في الناس جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثا؛ فهناك نواميس ثابة تتحقق، لا تتبدل ولا تتحول. والقرآن يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها للناس، كي لا ينظروا الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة، محصورين في فترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان. ويرفعون تصورهم لارتباطات الحياة، وسنن الوجود، فيوجههم دائماً إلى ثبات السنن واطراد النواميس. ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم؛ ودلالة ذلك الماضي على ثبات السنن واطراد النواميس"[2] عقلية تفكر تفكيراً علمياً سننياً منظماً بعيداً عن أشكال الخرافة وانتظار حصول الخوارق، فتهتدي بأنوار الوحي وتستبصر بمعطيات التاريخ وتجارب الأمم والحضارات وتعينه على تحقيق معاني الخيرية والعالمية والوسطية والشهادة.

ت- الاطراد وعدم التخلف:

فالسنن الإلهية تتتابع وتتوالى على نهج واحد وتجري مستقيمة على طريقة معلومة،[3] لا تخلف ولا اختلاف ولا تعارض متى تهيأت الأسباب واكتملت الشروط وانتفت الموانع، فقد جعلها الله نافذة متنفذة في خلقه، يتكرر حصول آثارها في جميع المتماثلات والمتجانسات لا تخضع لتقلبات الزمان وعوارض المكان، وإنما هي عالمية متحدة في قواعدها، مشتركة في تأثيرها وفاعليتها، فـ "السنة التاريخية مطردة،

---

(١) خليل، **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٣٠.

(٢) قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، القاهرة وبيروت: دار الشروق، ط١١، (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، ج٥، ص٢٩٥٠-٢٩٤٩.

(٣) من دلالات السنة في اللغة الاطراد والتتابع والاستقامة وعدم التخلف، وهي ترجع كلها إلى الأصل الدلالي الذي عليه مدار لفظ السنة وهو الجريان.

فهي ليست علاقة عشوائية قائمة على أساس الصدفة والاتفاق، وإنما هي علاقة ذات طابع موضوعي، لا تتخلف في الحالات الاعتيادية... وكان التأكيد على طابع الاطراد في السنة، تأكيداً على الطابع العلمي للقانون التاريخ؛ لأن أهم مميز يميز القانون العلمي عن بقية المعادلات والفروض هو الاطراد والتتابع وعدم التخلف"[1]

والناظر في القصص القرآني وأحوال الأمم الماضية وأخبار الحضارات عبر صيرورات التاريخ، يبصر حقيقة اطراد السنن، وتتابعها وعدم تخلف نتائجها وآثارها، وأن الله "سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم؛ فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول، بل هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يفوت بين المتماثلين، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل، وهذا القول أشبه بأصول الجمهور القائلين بالحكمة في الخلق والأمر، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسوي بين المتماثلين، ويفرق بين المختلفين، كما دل القرآن على هذا في مواضع كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم: ٣٥]، ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها، والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن، وهي كثيرة"[2] ولولا هذا الاطراد لما حصل الاعتبار، ولما أمكن للعقل البشري أن يستنبط ويستخرج قواعد في التداول والتدافع والابتلاء والتمكين تعينه على إقامة صرح عمران إنساني عالمي.

وفي السياق نفسه يؤكد ابن عاشور أن " الفاء في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣] فاء فصيحة؛ لأن ما قبلها لما ذكر الناس بسنة الله في المكذبين أفصح عن اطراد سنن الله تعالى في خلقه. والتقدير: إذا علموا ذلك فلن تجد لسنة الله تبديلاً. و"لن" لتأكيد النفي. والخطاب في "تجد" لغير معين فيعم كل مخاطب، وبذلك يتسنى أن يسير هذا الخبر مسير الأمثال. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ وتهديد

(١) الصدر، **السنن التاريخية في القرآن**، مرجع سابق، ص٦٧.

(٢) الحراني، **رسالة في لفظ السنة في القرآن**، مرجع سابق، ص٥٥.

للمشركين"[1] إن الله تعالى قد قضى باطراد سنته وأن لا تتعرض للنقض أو التبديل، فهي قاضية نافذة ماضية. وقد أوضح هذا المعنى أكثر محمد كنعان بمثال واقعي فقال: "إن سنن الله في الخلق تقوم على الاطراد، بحيث تمضي السنة إلى غايتها المقدرة بإذن الله، كلما توافرت شروطها، ولم يكن ثمة ما يحول دون تحقيقها... ويمكن تشبيه السنة من هذه الوجهة بطلقات البندقية فهي تنطلق من الفوهة كلما ضغطنا على الزناد، وكذلك هي سنة الله، فهي تمضي إلى غايتها كلما وفرنا شروطها. وكما أننا نفقد السيطرة على الطلقة بمجرد خروجها من الفوهة، فكذلك نفقد السيطرة على نتائج السنة فور أن نوفر لها شروطها؛ لأنها ستمضي بعد ذلك لتحقيق أهدافها شئنا ذلك أم أبينا."[2] ونشير هنا إلى أنه لا تعلق للاطراد بالحتمية إذا الأمر مرتبط باستجماع الشروط، واستكمال المقدمات والإتيان بالأسباب الموصلة إلى وقوع السنة، وهذا هو الاطراد الذي به يصح الاعتبار ويحصل به العلم، أما غير ذلك فموكول لإرادة الإنسان وحريته في الفعل والاختيار.

ث- العموم والحاكمية:

يدل العموم على الشمول والإحاطة، وتدل الحاكمية على النفاذ والتحقق وعدم التخلف، فالعموم والحاكمية خصيصتان من خصائص السنن، وهما من مقتضيات عدل الله وحكمته، ودليل على مضاء السنن ونفاذها وخلوصها، فقد أرادها الله تعالى أن تكون مبرأة من الهوى والتحيز والمحاباة، وجعلها عامة في خلقه، محيطة بتفاصيل الحياة، لا تميز بينهم إلا على أساس الأخذ بها "وليس في القرآن نص واحد فيه مجاملة لأمة الإسلام، بل هو الخطاب الصريح الذي يوقفها على أخطائها، ويحدد مواطن ضعفها، ويسمي الأشياء بمسمياتها، وربما لجأ إلى تلقينها دروساً قاسية، حين تخالف سنن الله تعالى التي لا تعرف المحاباة والأماني"[3] ولو عرفت سنن الله محاباة لأحد

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٣٣٧.

(٢) كنعان، **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**، مرجع سابق، ص ٧٩.

(٣) شرفه، **سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة**، مرجع سابق، ص١٧٢.

لحابت أنبياءه ورسالته الخاتمة، ولكن الكل خضع لسنته التي لا محيد عنها، مما يبرز الطابع الواقعي لها. وقد أصاب الصحابة ما أصابهم يوم أحد لما خالفوا سنن النصر، ففشلوا وتنازعوا وعصوا أمر نبيهم ولم يشفع لهم إيمانهم، فالله تعالى علق "النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم، وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم وسلوكهم، وباستكمال العدة التي في طاقتهم، وببذل الجهد الذي في وسعهم... فهذه سنة الله. وسنة الله لا تحابي أحداً... فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير. فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن لهم وإبطال الناموس. فإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن، ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس."[1]

إن سنن الله لا تقيم وزناً للانتساب إلى قومية أو عرق أو نسب أو الادعاء بالانتماء إلى دين والافتخار به على أنه أصح الأديان وأقومها وأسلمها من التحريف، فهذه مجرد أماني، والقرآن يقول: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤].

ومن دلائل نفاذ سنن الله تعالى وحاكميتها وعدم تخلفها أنها واقعة لا محالة لا تراعي جهل جاهل ولا غفلة غافل، ولا يشذ عن حكمها مؤمن ولا كافر، ولا تتعطل مراعاة لنسب أو مكانة أو انتماء، فسنن الله ماضية قاضية حاكمة غلابة. وقد علق سيد قطب على آيتي سورة النساء السالفتي الذكرفقال: "أن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولاً إلى الأماني. إنه يرجع إلى أصل ثابت، وسنة لا تتخلف، وقانون لا يحابي. قانون تستوي أمامه الأمم -فليس أحد يمت إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنسب ولا صهر- وليس أحد تخرق له القاعدة، وتخالف من أجله السنة، ويعطل لحسابه القانون... إن صاحب السوء مجزى بالسوء؛ وصاحب الحسنة مجزى بالحسنة. ولا محاباة في هذا ولا

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج١، ص٥١٣.

مماراة"[1] لذلك وقعت أحداث غزوة أحد في قلوب كثير من الصحابة موقع الصدمة فقالوا ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ١٦٥] مستغربين ما حصل لهم، وكيف شج رأس نبيهم، وكسرت سنه، وهم أهل حق وإيمان، فصحح الله تعالى هذا المنطق ونبههم إلى غفلتهم عن سنته التي لا تحابي أحداً من خلقه ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] ولقد وعت هذه الجماعة المسلمة الأولى هذا الدرس ووقع التأكيد عليه مرة أخرى يوم حنين حين تحدثت طائفة من حديثي عهد بالإسلام أنهم لن يغلبوا اليوم من قلة، فخلطوا بين سنن الإعداد وسنن التأييد، وظنوا أنهم منصورون لا محالة إعجاباً بالكثرة واغتراراً بالمعطيات المادية الميدانية وما تحقق من دخول أفواج جديدة في الإسلام يوم فتح مكة، "فالاغترار بقوتهم حرمهم من الاستثمار الصحيح لسنن التأييد، والاغترار بتأييد الله لهم كونهم مسلمين حرمهم من الاستثمار الأمثل لسنن الإعداد..وكانت النتيجة هزيمة[2] وزلزلة نفسية كبيرة. هكذا يطرد عمل سنن التسخير، ويمضي على الخلق كلهم دون

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص٢٤٣.

(٢) الحق الذي تشهد به الوقائع وتنهض على صحته مرويات السيرة النبوية أن الهزيمة يوم أحد لم تحصل إلا في الجولة الثانية من القتال، أما الجولة الأولى فواضح أنها كانت لصالح النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، كما هو الحال في الجولة الثالثة لما تراجعت قريش وسار خلفها النبي ﷺ حتى بلغ حمراء الأسد وكرهت قريش لقاءه، ولا شكَّ أن ذلك يعد انتصاراً من وجهة نظر عسكرية وسياسية. انظر:

- البخاري، **الجامع الصحيح، مرجع سابق**، كتاب: المغازي، باب: قتل حمزة بن عبد المطلب، ج٤، ص١٤٩٤، حديث رقم: (٣٨٤٤)، وباب: إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا، ج٤، ص١٦٦٠، حديث رقم: (٤٢٨٢)، وباب: الذين استجابوا لله والرسول، ج٤، ص١٤٩٧، حديث رقم: (٣٨٤٩).

- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل طلحة والزبير، ج٤، ص١٨٨٠، حديث رقم: (٢٤١٨).

- ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار. **سيرة ابن إسحاق**، تحقيق: محمد علي القطب ومحمد الدالي بلطه، بيروت: المكتبة العصرية، (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م)، ج٣، ص٩٢، بسند حسن.

- النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله. **المستدرك على الصحيحين**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٠م، ج٢، ص٢٩٦-٢٩٧، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

استثناء، حتى ولو تعلق الأمر بحركات الأنبياء أنفسهم، فما بالك بغيرهم من الناس"[1] إنها كلمات الله التي لا تبديل لها، لا تحول دونها الحوائل، ولا تحابي براً ولا فاجراً، تقهر من خالفها، وتكسر ظهر من انتهكها حتى تمضي إلى غايتها ونهايتها التي قدرها الله لها. تنفذ في الخلق كلهم لا تستثني أحداً، ولا تأبه لأماني جماعة، ولا لادعاءات قوم، ولا لانتظارات أمة تزعم خيريتها، ولم تقم بواجب الخيرية ومستلزماتها.

٤- خصوصية السنن ومقاييسها:

إن ما سبق يجعلنا نقف على خصوصية السنن ومقاييسها، فهي عادلة غلابة كاشفة، إنها: "قدر مقدور في حركة الصيرورات الاستخلافية الحضارية للبشر فلا يغرن أحداً علمه أو إيمانه أو جهده أو نفوذه، أو جاهه ونسبه الموروث إذا ما كان قاصراً أو مخالفاً لسنن الله في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد من جهة، وسننه في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من جهة أخرى؛ لأن سلطان السنن الغلاب بإذن الله، سيعري إيمانه المغشوش، ويكشف زيف وعيه وقصور علمه، ويطيح بنفوذه المؤسس على غير هدى من منطق هذه السنن، ليذوق وبال زيف وعيه وتقصيره في الأخذ بسنن الله في الاستخلاف والتمكين والتأمين."[2]

وهي أيضاً ذات طبيعة استشرافية استبصارية قائمة على منطق سببي تعليلي ترابطي استنتاجي كلي يؤكد اطرادها ونفاذها، فالإحاطة بها والتحكم فيها معرفة واستثماراً يفضي إلى تشكيل عقلية منهجية استباقية لدى العقل المسلم تمنحه إمكانات للتقدير الجيد للموقف وللتحديات المتوقعة وللفرص الممكنة، وتجنيب الوقوع في السلبية والانهزامية والانتظارية والنزعة الاستسلامية، ويحرر طاقات الأمة الإبداعية من التقليد والجمود والاجترار نحو البحث عن بدائل ممكنة، وفي الأولين عبرة وتلك

(١) برغوث، **حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية**، مرجع سابق، ص٤٥.

(٢) برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية التدافع والتجديد**، مرجع سابق، ص٣٣-٣٤.

سنة الله الماضية.

إن من خصوصية السنن أنها تبعث في الفرد والجماعة والأمة معاني الأمل والإيجابية والحركة والمبادرة وضبط خيارات الإقدام أو الإحجام، ورؤية الواقع في حقيقته دون الوقوع في مطبة استسهال الأمور والتهوين منها، أو استصعابها والتهويل منها.

وهي أيضاً منظومة تكاملية كلية نسقية شمولية متوازنة لا يتحقق استثمارها وتسخيرها الفعال إلا من خلال التعامل معها بوصفها بنية أو وحدة كلية تتشابك فيها المنظومات وتتكامل فيها الأبعاد، فالسنن الإلهية كما يقول محمد قطب "لا تعمل فرادى، إنما تعمل مجتمعة، وتكون النتيجة الواقعية، هي حصيلة السنن التي تعرض لها أثناء حركته في الأرض."(١)

وهي كذلك منطقية مبرأة من الهوى والظن، ومحكومة بقواعد العلم ومنطق العقل وسلامة الفطرة، لأنها من تدبير الحكيم العليم، فهي: "برهانية معقولة غائية مقاصدية مترابطة، تستسيغها العقول المتوازنة وتقبلها، بل وتطلبها الفطر السليمة، لاتساقها مع قوانين العقل وسنن الفطرة، ونواميس الكون العامة."(٢)

وإذا كانت هذه خلاصة طبيعة السنن وخصوصيتها المميزة لها فيمكن القول: إن الحديث عنها لا يكتمل إلا بالحديث عن مقاييسها التي نجملها فيما يلي:

أ- الأصالة: أصالة السنن: مصدراً وتوجيهاً للوعي والفهم:

يرتبط هذا المقياس بخاصية الربانية، فالأصالة هي التي تحافظ على الخاصية الربانية للسنة وتضمن روحانية الفعل الحضاري وعدم وقوعه في نزعة مادية وضعية تفكيكية، كما تضمن استجابة هذه السنن لفهم حركة الحياة والوجود، وتوجيه حركة

---

(١) قطب، محمد. **حول التفسير الإسلامي للتاريخ**، جدة: المجموعة الإعلامية، ١٩٨١م، ص٩٢.

(٢) برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية التدافع والتجديد**، مرجع سابق، ص٢٤٦.

الاستخلاف في اتجاه خط العبودية والعالمية والإنسانية والشهادة. دون هذه الأصالة لا يمكن الحديث عن هدايات السنن أو منظومة سنن الهداية والتأييد، وهو ما يعني أن اكتشاف سنة من السنن في انفصال عن مقياس، وبعد الأصالة هو اكتشاف فاقد للحجية وخال من الوجاهة والشرعية.

تشكل الأصالة إذن، بهذا المعنى المقياس الأول للسنن بوصفها المحدد الأساس لمستوى الوعي والفهم بعالم السنن وطبيعته ونمط اشتغاله. فالأصالة هي الأساس العقدي والمعرفي للسنن الذي يؤكد تناغمها مع الفطرة، وانسجامها مع طبيعة الكون والوجود وحقيقة الإنسان. وهي ليست مفهوماً مقابلاً للمعاصرة أو نقيضاً لها، وإنما تدل على ارتباطها بمرجعية الوحي وعدم تناقضها مع آيات الله في الكون والطبيعة. فالأصالة هي التي تحدد الرؤية العقدية والمعرفية المتكاملة والتي تحمي الفعل العمراني التجديدي من الوقوع في اللافعالية، أو في فعالية غير مسددة بمنهجية الوحي، وحينما تفقد السنة أصالتها تفقد موضوعيتها وفعاليتها وتؤدي عكس ما كان مرجواً منها، وهذا يعني أنها ليست سنة على الحقيقة، وإنما هي سنة متوهمة بحكم التوسل بالمنهج الوضعي المادي المفصول عن هدايات الوحي وبصائره.

إن "البعد التأصيلي بعد جوهري في العملية التجديدية، من دونه تفقد هويتها، ويضطرب سيرها، وتتيه في دوامة الاستقطابات المتناقضة، التي تبدد فصولاً من "الميزانية التسخيرية" للمجتمع، وتضاعف من أحجام ووتائر "مديونيته الحضارية" التي تدمر حاضره وترهن مستقبله."[1]

ب- الفعالية: حركة وفعلاً وإنجازاً:

يرتبط مقياس الفعالية بالأداء وحجم الممارسة وصوابية الفعل، فمقياس الفعالية بوصفها المحدد الأساس لمستوى الحركة والفعل والإنجاز هي الشرط الأساس في حركة العمران، وخوض سنة التداول وتجاوز الابتلاء وتحقيق التجديد الحضاري

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٦.

وإدارة عملية التدافع بإيجابية وجاهزية عالية، ويعرف الطيب برغوث الفعالية بأنها " امتلاك القدرة الفكرية والمنهجية والتنفيذية المتجددة للتأثير الإيجابي المطرد في عالم الأفكار، وعالم الأشخاص، وعالم الأشياء، وعوالم العلاقات الاجتماعية داخلياً وخارجياً... من خلال الحركة التنفيذية الهادفة المتقنة المشروعة، المؤسسة على فقه تخطيطي عالٍ، وعل فقه تنسيقي متقن، وعلى فقه متابعة دائبة، وعلى فقه تقويمي مستمر، مع القدرة على الاقتصاد في الجهد والقدرة على سرعة الإنجاز، والقدرة على حماية دائمة للمنجز الاجتماعي الكلي وتعزيز احتياطاته ومدخراته الاستراتيجية"(١) ولا يخفى أن هذا التعريف الوظيفي العملي لمفهوم الفعالية بأبعاده الفكرية والمنهجية والتخطيطية والإنجازية والتقويمية والوقائية والاستشرافية لا يوفرها إلا وعي سنني يكون عاصماً من هدر الإمكانات وتضييع الجهود وتبديد الطاقات، و يعمل على تخليص للأمة من مرض الوهن، وللفرد من أن يكون كلاً.

إن فعالية السنن هو الذي يمكن الأمة من تجويد مناهج الإنجاز وتطوير الأداء وتنويع البدائل، وهو الذي يجعلها أكثر اقتداراً ومكنة في معتركات تحديات الاستخلاف وما تفرضه من ابتلاءات وتدافعات وتداولات، وفي مجالات التسخير وما تمليه من التحكم المعرفي والتوظيفي لدوائر الآفاق والأنفس والهداية والتأييد.

ت- الرسالية:

المقياس الثالث هو رسالية السنن، فالسنن تتحول إلى مشاريع عمرانية حضارية فاعلة ومؤسسة لنهضة الأمة حينما يتم استثمارها رسالياً؛ أي حينما تستهدف أولاً: تنمية الوعي بالوظيفة الوجودية الاستخلافية لدى الفرد المسلم وثانياً: حينما تجعله يتحمل مسئووليات التاريخية بوصفه عضواً داخل الجماعة المسلمة يسعى نحو استعادة دور الشهادة على العالمين، وتجسيد معاني الوسطية والخيرية والوراثة الحضارية. وليست الرسالية سوى ثمرة كبرى من ثمار أصالة السنن وفعاليتها؛ إذ هي تستمد

(١) برغوث، **حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية**، مرجع سابق، ص١٢-١٣.

فعاليتها ونفاذها من رساليتها. فالسنن تقاس حقيقة بمدى استجابتها للأبعاد الرسالية للفرد والمجتمع والأمة، وقدرتها على تمثل هذه الأبعاد وتنزيلها واقعياً.

ثانياً: موارد السنن وأصولها وطرائق استنباطها ومعرفتها

إن الحديث عن موارد السنن هو حديث عن مرجعيتها ومصدريتها، ولعل معرفة مصادر استخراج السنن، والكشف عن مواطنها والوقوف على مواردها مسألة مركزية وذات قيمة منهجية ومعرفية وجيهة؛ إذ تؤثر على ما بعدها، وتحقق درجة عالية من الفعالية الاستخلافية والتسخيرية، حيث "تمنح حركة الاستخلاف إمكانات تسخيرية متنوعة ومتكاملة، تضاعف فعاليتها الإنجازية بوتائر نموذجية قصوى من ناحية، كما تضع بين يديها الآليات الوقائية المتكاملة، التي تحمي مسيرتها من الوهن والفتور والسلبية والاهتلاكية، وتحافظ على منجزاتها الحضارية وتعين على الانتفاع الأمثل بها من ناحية أخرى"[1] وهي الفيصل بين الرؤية الإسلامية والرؤية الغربية في فهم ظواهر الاجتماع والعمران البشري.

فحيث إن الرؤية الغربية رؤية مادية وضعية ألغت من حسابها كل ما هو غيبي مرتبط بالوحي وبالمرجعية الإلهية واستبدلت جبرية المادة بجبرية الآلهة، وقعت ضحية فلسفات تجريبية مادية فغيبت أبعاداً أساسية في الوجود البشري والعمران الإنساني، ترتب عن ذلك نتائج كارثية عكست ضلالاً في الفهم وخللاً في مقاربة الظاهرة الاجتماعية والحضارية، امتد ذلك إلى وضع برامج ثقافية وتربوية وسياسية مخالفة لسنن الفطرة الإنسانية، وهذا ما تعبر عنه كثرة مدارس علم الاجتماع الغربي وتعدد مناهجه مع شح بالغ في النتائج. ولن يهتدي علم الاجتماع المعاصر إلى فهم سليم لظواهر المجتمع والثقافة والحضارة مالم يتنازل عن كبريائه الموهوم، ويعيد تصحيح المسار العلمي والمنهجي للعلوم الاجتماعية باستلهام أنوار الوحي وبصائره.

---

(١) برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، مرجع سابق، ص١٧٥.

ولعل المسؤولية ملقاة على الباحثين والعلماء الاجتماعيين المسلمين للكشف عن قصور مناهج الغرب الاجتماعية وتقديم البديل المنهجي والمعرفي وفق الرؤية القرآنية التوحيدية الكونية، وإقناع العقل الغربي بضرورة اعتماد الوحي من حيث هو يملك صفتي التصديق والهيمنة كمرجعية لتحقيق الهداية السننية ويمنح الإنسان الإجابات الصحيحة والكافية عن تساؤلات النشأة والخلق والوجود والمصير، ويمكنه من القيام برسالته الاستخلافية ووظيفته الاستعمارية في الأرض، ويقيه من الوقوع في أشطان النماذج الحضارية المتوحشة.

من هنا يشكل الوحي بتوجيهاته وبصائره التي عرضها من خلال القصص القرآني والأمثال الواردة في القرآن، والسنة، والآيات، والأحاديث التي فيها ربط للأسباب بمسبباتها، وللمقدمات بنتائجها مرجعاً أعلى ومصدراً مطلقاً في معرفة السنن والكشف عنها واستخلاصها وصياغتها وفق رؤية القرآن للسنن. إلا أن الوحي نفسه أحال على موارد أخرى للسنن تعد مظاناً لها ومصدراً لاستجلائها، وهي تكتسب مشروعيتها من إرشاد الوحي إليها وتأكيده على إعمالها وعدم إهمالها. فأكد على السير في الأرض، والنظر في تجارب الأمم، والقراءة المتبصرة للتاريخ... وتفصيل ما سبق في مسألتين اثنتين:

١ - موارد السنن وأصولها:

وتتحدد موارد السنن التي منها تستنبط في ثلاثة:

أ- الوحي مصدراً للسنن:

الوحي قرآناً وسنة وسيرة هو مما تكفل الله تعالى بحفظه، وتعهد به هداية خلقه يشكل المصدر الأساس لمعرفة السنن، واكتشافها، واستنباطها، والوقوف على كيفية استثمار ميزانيتها التسخيرية و طاقتها الاستخلافية في تحقيق الترقي العمراني الراشد مع ضبط قواعد الفهم والاستدلال منه، بما يضمن بقاء فعاليته الحضارية وحاكميته الواقعية من حيث هو أصل يتحقق بأصالته الذاتية، وبما يعصم من الوقوع في

تأويلات الجاهلين، وانتحالات المبطلين وتحريفات الغالين. وسأركز الحديث هنا عن القرآن الكريم مصدراً للسنن مع ذكر مواردها فيه وما أحال عليه القرآن من مصادر أخرى، في حين سأفرد عنواناً خاصاً لمصدرية السيرة النبوية في الفقه السنني وخطوات استثمار السنن في ضوء الهدي النبوي، يكون منسجماً مع بابه، وذلك في الفصل الأول من الباب الثالث.

- **القرآن الكريم:**

لا شك أن "القرآن الكريم كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره"[(١)] وفي سور القرآن المجيد وآياته مساحات كبيرة استغرقت أحداثها معالجة أحوال الأمم السابقة وتجارب الحضارات بأبعاد واتجاهات مختلفة "تتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات البشرية عبر الزمان والمكان، مروراً بمواقف الإنسان المتغيرة... وتبلغ هذه المسألة حداً من الاتساع في القرآن، بحيث إن جل سوره لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية أو إشارة لحدث ما أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ."[(٢)]

وقد تضمن القرآن خلاصة السنن التي تحكم حركة التاريخ والاجتماع البشري؛ إما بالتنصيص عليها مباشرة، أو بما تفيده الآيات من خلال سياقاتها وما يحفها من قرائن وأحوال، أو من خلال ماورد فيه من القصص والأمثال... "وهذا الضرب من الهداية القرآنية كثيرة شواهده في بيان القرآن الكريم، لا تخلو منه سورة من السور المكية -على الخصوص- وهو في السور المدنيات غير قليل، وهو في حاجة شديدة إلى أقلام خبيرة بفنون الاجتماع البشري وأطواره، وسياسة الأمم والشعوب ليعالج

---

(١) الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، مرجع سابق، مج ٢، ج٣، ص٢٤٠.

(٢) سلمان، حسن. **النظرية القرآنية لتفسير حركة التاريخ**، بيروت: مؤسسة الوفاء، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص٥٣.

معالجة تبين منازل الهداية في رحابه، وتفسر آيات من القرآن الكريم بطريقة تجعل من الهداية القرآنية في بناء المجتمع الصالح نبراساً يستضيء بنوره المصلحون الاجتماعيون في صورة تبرز الهداية الاجتماعية في بيان القرآن الحكيم باعتبارها لوناً من ألوان الإصلاح الاجتماعي الذي لا تستغني عنه الحياة."[(١)]

- **مظاهر موارد السنن في القرآن:**

• **القصص القرآني:**[(٢)]

ورد في النص القرآني لفظ القصص، كما ورد فيه لفظ الأنباء والأخبار[(٣)] للدلالة

---

(١) عرجون، **القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين**، مرجع سابق، ص١٢٦.

(٢) لقد ظلت كثير من الأبحاث حول القصص القرآني مرتهنة في بيان التصوير الفني والتحليل الأدبي للقصة القرآنية، أو مجرد وصفها تاريخياً في حين غيبت الدراسة السننية للقصص القرآني. وقد نبه برغوث، الطيب. إلى هذا الأمر بقوله: "لم يدرس القصص بعد دراسة سننية متكاملة، تضعه في عمق سياقه المعرفي الحقيقي، الذي يتجاوز نطاق التأريخ، إلى نطاق فلسفة التاريخ والحضارة، بل يتجاوز نطاق التقرير المباشر للأحكام الفقهية والآداب الشرعية، إلى نطاق تلمس الأبعاد والدلالات السننية الكامنة والفاعلة باطراد، في مركبات تلك الوقائع والأحكام والآداب. وهذا دون شك نقص، بل قصور هيكلي كبير وخطير في منظومتنا المعرفية، كان له ما بعده من التأثير السلبي العميق في أدائنا الحضاري عامة"، بل حينما يتم تغييب الرؤية السننية للنص القرآني فإن النتيجة ستصير هي التحول إلى عقل خرافي خوارقي يتوسل بالأساطير والإسرائيليات لفهم حقيقة القصص القرآني. وممن أشار إلى هذا الأمر محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: "المشكلة في النظر إلى القصص القرآني... (أنه) انتقل من دراسة تاريخية لقيام الحضارات وانهيارها إلى دراسة روائية ليس فيها حس بسنن الله الكونية إطلاقا.. فوجدت أساطير، ووجدت الإسرائيليات مجالاً واسعاً عند القصاصين." انظر:

- برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية على ضوء نظرية التدافع والتجديد**، مرجع سابق، هامش ص١٢٩.

- الغزالي، محمد. **كيف نتعامل مع القرآن**، مدارسة مع عمر عبيد حسنة، هرندن: منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، ص٦٧.

(٣) وردت مادة أو لفظ "القصص باشتقاقاته وما يدل عليه" في القرآن ٢٦ مرة موزعة على ١٢ سورة وهي: آل عمران، والنساء، والأنعام، والأعراف، وهود، ويوسف، والنحل، والكهف، وطه، والنمل، والقصص، وغافر. استأثرت السور المكية بنسبة ٨٣.٣٣٪، والسور المدنية بنسبة ١٦.٦٦٪. وهو ما =

على الحوادث والوقائع الحاصلة في أزمنة وأمكنة مختلفة، والمتصلة بأشخاص ومجتمعات وأمم، يعيد القرآن الكريم عرضها وبسطها أمام العقل المسلم للاعتبار،[1] ففي "قصص الأمم السابقة في البيان القرآن مواضع للعبرة والعظة، ففي قصة عاد وثمود وأخذهم بعذاب الإبادة والإفناء، وفي قصة أهل المدائن وقوم نوح، وقوم إبراهيم، وأخذهم بما أخذهم الله به آيات. على أن الهداية القرآنية في بناء المجتمع وتصوير عناصر صيانته وحفظه، وتصوير عوامل إفنائه وتفتيته تضع للناس دعائم بناء المجتمعات الصالحة، وتضع لهم وسائل الوقاية من الانزلاق الاجتماعي حتى لا تتسرب إليهم عوامل الهدم والإبادة."[2] وهو امتياز للعقل المسلم؛ رحمة به فيدرك مالم تدركه العقول التي صدت عن ذكر الله واستكبرت عن الاهتداء بالوحي، وهداية له فلا يضل كما ضلت مناهج البشر وعلومهم فلم تقف على حقيقة السنن. ويقرر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا المعنى بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١].

والمتأمل لسياقات ورود القصص القرآني يجد أنه يطغى عليها السياق الوظيفي، فالقرآن الكريم يؤكد على وظيفية القصة سواء ما تعلق منها بالجانب المعرفي، أم جانب

= يؤكد ارتباط القصة القرآنية بالوظيفة التعليمية الخاصة بالتنشئة الاجتماعية وتكوين الشخصية القاعدية للفرد. انظر:

- خواجة، عبد العزيز. **أنماط العلاقات الاجتماعية في النص القرآني: دراسة سوسيولوجية لعمليات الاتصال في القصة القرآنية (قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تطبيقاً)**، دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٥٨.

(١) كثيراً ما تختتم الآيات القرآنية التي تقص علينا القصص بالدعوة إلى التفكر والاعتبار، نذكر على سبيل المثال: [الأعراف: ١٧٦]، و[هود: ٤٩]، و[هود١٠٠-١٠٣]، و[يوسف: ١١١]، ودلالة الاعتبار في مثل آيات القصص تفيد عبور العقل المسلم إلى أزمنة وأمكنة ووقائع وأحداث ماضية، لاستكناه عمق القصة، والكشف عن السنن الحاكمة خلف تلك الأحداث لتحصيل المكنة التسخيرية والاقتدار الاستخلافي، والقيام بواجبات العمران وأعباء الشهادة على العالمين.

(٢) عرجون، **القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين**، مرجع سابق، ص١٢٤.

المقارنة مع الأمم السابقة، أم مجال الدعم النفسي وتسلية النبي ﷺ ورفع معنويات أصحابه، أم مجال استخلاص السنن الحاكمة لنهوض الحضارات وسقوطها. وهذا المجال الأخير -أي مجال استخلاص السنن الحاكمة لنهوض الحضارات وسقوطها- يحتل كما يقول عبد العزيز خواجة "الدرجة الأولى، فعن طريق معرفة آليات تطور المجتمعات السابقة ومصائرها وربط الأسباب بالنتائج نتوصل إلى قوانين تحكمها وتسيرها، وهي القوانين نفسها التي تحكم المجتمع المعاصر مع اختلاف الفترات الزمنية لها، وهذا ما يجعل من التاريخ مخبراً للدراسات الاجتماعية؛ لأن الطرح التاريخي يكشف عن التبعية الوراثية لبعض العمليات الاجتماعية، وإدراك العلاقات السببية للظواهر، والنظر إلى الماضي يسهل معرفة الحاضر، ويسهل عملية الوصول إلى قوانين شاملة لحركية المجتمع أو بعض الجماعات الاجتماعية وفق تصور عام."[1]

وليست قصص القرآن خيالات أو أساطير، وإنما حقائق تاريخية تملك أعلى درجات التوثيق العلمي، وأعظم طريق للتحقق من صدق روايات التاريخ المتعلقة بالأنبياء والرسالات والأفراد والأمم والحضارات، وأخصر منهج لتشكيل عقلية سننية "وإلا فما قيمة القصص القرآني الخالد إذا لم ينشئ عقلاً مدركاً للقوانين والسنن، التي تحكم التجمع الإنساني، وتتحكم بقيام وسقوط الحضارات، هل هي حكايات لتزجية الوقت أسقطها الزمن وطواها التاريخ؟!"[2] ولذلك يدعو عبيد حسنة إلى ضرورة التوجه صوب "فقه القصص القرآني، بالقدر نفسه الذي توجهنا به نحو آيات الأحكام، واستنبطنا منها هذه الكنوز العظيمة في مجال التشريع، لنكتشف فقهاً حضارياً في إطار علوم الإنسان، والقوانين الاجتماعية، التي تحكم مسيرة الحياة والأحياء، والتي تخلفنا فيها إلى درجة لا نحسد عليها."[3]

---

(١) خواجة، **أنماط العلاقات الاجتماعية في النص القرآني: دراسة سوسيولوجية لعمليات الاتصال في القصة القرآنية (قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تطبيقا)**، مرجع سابق، ص١٥٩.

(٢) كنعان، **أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق**، مرجع سابق، من مقدمة عمر عبيد حسنة، ص١٣.

(٣) المرجع السابق، ص١٤.

والقصص القرآني نماذج فردية وجماعية تحمل دلالات نفسية واجتماعية وسياسية وحضارية، وخلاصات لتجارب بشرية تاريخية، تكشف لنا عن أبعاد حركة التاريخ، واتجاهات مساراته عبر مختلف الأزمنة والأمكنة، مما سيمهد لتشكل أول لحظة من لحظات الوعي التاريخي التحليلي المقارن، والتفكير السنني المنهجي لدى العربي لما ارتبط برسالة الإسلام، وسيحول فعله إلى حركة منتجة وفاعلة تستحضر بصورة كثيفة تجارب السابقين، وتربط بين أحداث التاريخ ووقائع الحاضر لاستشراف المستقبل، وتشيد نموذجاً عمرانياً إنسانياً عالمياً في زمن تاريخي قياسي. ويؤكد عماد الدين خليل هذا المعنى فيقول: "وإن جاءت تسميتها -أحيانا- بالقصص؛ أي الحديث عن الماضي، تخرج عن الإطار الفني للقصة وبهذا تكتسب بعدها التاريخي المجرد. ومهما يكن من أمر فقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية، وحدثنا عن الماضي في جل مساحاته، لكن ما يلبث أن يخرج بنا إلى تبيان (الحكمة) من وراء هذه العروض، وإلى بلورة عدد من المبادئ الأساسية في حركة التاريخ البشري مستمدة من صميم التكوين الحدثي لهذه العروض، تلك المبادئ التي سماها (سنناً)، ودعانا أكثر من مرة إلى تأملها واعتماد مدلولاتها في أفعالنا الراهنة، ونزوعنا المستقبلي. ومن ثم يتأكد لنا مرة أخرى أن هذه العروض ما جاءت لكي تلقي المتعة في نفوس المؤمنين، كما هو الحال في أي نشاط فني، قبل أن تبرز للعيان الاتجاهات التعليمية الحديثة في ميادين الفنون، إنما جاءت لكي (تعلمهم) من خلال تجاربهم الماضية و(تحركهم) عبر الأضواء الحمراء والخضراء التي أشعلتها لهم هذه التجارب في طريق الحياة المزدحم الطويل."[1]

وعبر القصص القرآني يعرض الوحي في وحدة متماسكة الأسباب التي كانت خلف هلاك الأمم وسقوط قياداتها؛ فذكر من هذه الأسباب: الظلم [الأنبياء: ١١، ويونس: ١٣، وهود: ١٠٢]، والكفر [الأحقاف: ٢٦، والحج: ٣١]، وتكذيب الرسل [ص: ١٢-١٥، وق: ١٢-١٤]، وارتكاب المعاصي وتفشي الفساد الاجتماعي

(١) خليل، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، مرجع سابق، ص٩٧-٩٨.

[الأنعام: ٦، وغافر: ٢١، وهود: ٨٤-٨٥]، وبطر النعمة وجحودها [القصص: ٥٨، والنحل: ١١٢]، التفرق والتشرذم [آل عمران: ١٠٥]. كما ذكر القرآن قصة ذا القرنين [الكهف: ٨٣-٩٨] أنموذجاً تاريخياً للتأكيد على سنة الله في الأسباب والمسببات، وقصة نوح واستهزاء قومه منه لما باشر صنع الفلك [هود: ٣٨] أنموذجاً تطبيقياً لسنة الله في الجزاء بجنس العمل، وقصة طالوت وجالوت [البقرة: ٢٤٦-٢٥٢] أنموذجاً حياً لسنة التدافع والتداول، وغير ذلك من القصص الذي عرضه القرآن وهو "يتتبع دخائل النفوس وخوالج القلوب، ويتخذ من الأحداث مادة تنبيه وتنوير وتوجيه. فهو لا يعرض الحوادث عرضاً تاريخياً مسلسلاً بقصد التسجيل، وإنما هو يعرضها للعبرة والتربية واستخلاص القيم الكامنة وراء الأحداث، ورسم سمات النفوس، وتصوير الجو الذي صاحبها، والسنن الكونية التي تحكمها، والمبادئ الباقية التي تقررها. وبذلك تستحيل الحادثة محوراً، أو نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات والنتائج والاستدلالات."[1]

فمن رام استخلاص سنن الله في العمران فعليه أن ينخرط في ممارسة تأملية تحليلية مقارنة للقصص القرآني، يفسر من خلالها كيفيات وقوع الأحداث، ويضبط سياقاتها، ويربط بينها، ويفسر نتائجها، ويكشف أسرارها، ويستنبط منها قواعد عامة كلية لإقامة قواعد العمران وصرح الحضارة، ويجعل منها منهجاً علمياً صارماً للتأكد من يقينية سنة ما واطرادها، ويصبح بذلك "القصص القرآني، المختبر البشري التاريخي، لصدقية، ويقينية، واطراد القوانين، والسنن الاجتماعية، التي أكدها القرآن، وأوقف عليها الأمة الخاتمة، لتتبين قوانين السقوط والنهوض، وتأخذ العبر والعظة، وتحقق الوقاية الحضارية،... إنّ ما ورد في القصص القرآني، يشكل مختبرات بشرية خالدة، مجردة عن حدود الزمان والمكان، من الناحية الاجتماعية، كما يشكل منجماً لاغتراف الثقافة الاجتماعية، والعلوم الاجتماعية، وتعدية الرؤية، وإعادة الصياغة،

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٤، ص٦١.

ودليلاً إلى أن فهم الواقع أمر أساس، لا يقل عن فهم تعاليم النبوة؛ لأن فهم الواقع هو الذي يمكِّن من حسن تنزيل تعاليم النبوة، والتعرف إلى وسائل إحداث التفاعل، وتحريك آليات التغيير الاجتماعي، وهذا لا يكون إلا بالفقه الاجتماعي؛ أي بالتحقق من القوانين التي تحكم الاجتماع والعمران"[1] وفي نفس الاتجاه يؤكد عبد الحليم عويس على أن القصص القرآني "يشكل بالنسبة لنا تجربة تاريخية غنية، ومختبراً لنفاذ السنن واطرادها، ومصدراً مهما لعلم الاجتماع البشري، والقوانين التي تحكمه، ونتعامل مع نتائج وخلاصات يقينية، أشبه بنتائج التجارب في العلوم المادية، وأشبه بالمعادلات الصارمة الدقة في العلوم الرياضية والفيزيائية (...) وأي مشروع نهضوي لا يأخذ هذه الأبعاد المتلازمة بعين الاعتبار، محكوم عليه بالفشل."[2]

وقد أدرك رشيد رضا هذه الحقيقة فدبجها في تفسيره المنار بذكره لأهداف وغايات ورود القصص التاريخي في القرآن الكريم، مؤكداً على الوظيفة السننية للقصص القرآني وجعلها محفزاً على الوقاية الحضارية من ما أصاب الأمم الماضية من هلاك ودمار. وقد فصل رشيد رضا في ذلك تفصيلاً كثيراً أقتبس منه هذا النص، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يستعرض أهداف القصص القرآني ويعددها: "(٧) بيان سنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في استعداد الناس النفسي والعقلي لكل من الإيمان والكفر، والخير والشر، والهدى والضلال، واستكبار الرؤساء والزعماء المترفين والمقلدين للآباء عن الإيمان والإصلاح، وكون أول من يهتدي به المستضعفين والفقراء، وفي عاقبة الكفر والجحود، والبغي والظلم والفسوق. (٨) ما في قصص الأقوام من المسائل التاريخية،... كفرعون وحال قومه معه في خنوعهم وخضوعهم، وفنونهم وسحرهم، وعمرانهم وعظمة ملكهم، وحال بني إسرائيل معه في استعباده إياهم وظلمه لهم، ثم

---

(١) المطيري، منصور زويد. **الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع الدواعي والإمكان**، سلسلة كتاب الأمة (٣٣)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤١٣هـ، من مقدمة عمر عبيد حسنة.

(٢) عويس، عبد الحليم. **التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون**، سلسلة كتاب الأمة (٥٠)، الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ص ٢١.

في إرثهم الأرض المقدسة بصبرهم وصلاحهم، ثم في سلبها منهم بكفرهم وفسادهم، وحال عاد قوم هود في قوتهم وبسطة خلقهم وجبروتهم، وثمود قوم صالح في استعمارهم الأرض ونحتهم الجبال واتخاذهم منها بيوتاً حصينة أمينة، ومن سهولها قصوراً جميلة، وغير ذلك، وكون كل ذلك لا يغني عن هداية الوحي الإلهي. (٩) بيان سنن الله تعالىٰ في الطباع والاجتماع، والتقدير والتدبير العام، وما في خلقه للعالم من الحكمة والرحمة والنظام، والعدل العام، وعدم محاباة الأفراد ولا الأقوام في نعم الدنيا ونقمها، ولا في الجزاء على الكفر والمعاصي والإيمان والطاعات في الآخرة؛ فقد كان الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ يصرحون بكل ذلك"[1] كما نبه الطاهر بن عاشور في المقدمة السابعة من مقدماته التي افتتح بها تفسيره "التحرير والتنوير" إلى الفوائد العشر المستفادة من القصص القرآني، ولأهميتها فإني أورد كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختصاراً، يقول: "فتوفرت من ذلك عشر فوائد: الفائدة الأولىٰ: أن قصارىٰ علم أهل الكتاب في ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء وأيامهم وأخبار من جاورهم من الأمم، فكان اشتمال القرآن علىٰ تلك القصص التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم من أهل الكتاب تحدياً عظيماً لأهل الكتاب، وتعجيزاً لهم بقطع حجتهم علىٰ المسلمين،... الفائدة الثانية: أن من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها في التشريع من الأنبياء بشرائعهم فكان اشتمال القرآن علىٰ قصص الأنبياء وأقوامهم تكليلاً لهامة التشريع الإسلامي بذكر تاريخ المشرعين،... الفائدة الثالثة: ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتيب المسببات علىٰ أسبابها في الخير والشر والتعمير والتخريب لتقتدي الأمة وتحذر،... الفائدة الرابعة: ما فيها من موعظة المشركين بما لحق الأمم التي عاندت رسلها، وعصت أوامر ربها حتىٰ يرعووا عن غلوائهم، ويتعظوا بمصارع نظرائهم وآبائهم، وكيف يورث الأرض أولياءه وعباده الصالحين،... الفائدة الخامسة: أن في حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة وذلك أسلوب لم يكن معهوداً للعرب فكان مجيئه في القرآن ابتكار أسلوب جديد في البلاغة العربية،... الفائدة السادسة: أن العرب بتوغل الأمية

(١) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١٢، ص٤٢.

والجهل فيهم أصبحوا لا تهتدي عقولهم إلا بما يقع تحت الحس، أو ما ينتزع منه ففقدوا فائدة الاتعاظ بأحوال الأمم الماضية وجهلوا معظمها وجهلوا أحوال البعض الذي علموا أسماءه فأعقبهم ذلك إعراضاً عن السعي لإصلاح أحوالهم بتطهيرها مما كان سبب هلاك من قبلهم، فكان في ذكر قصص الأمم توسيع لعلم المسلمين بإحاطتهم بوجود الأمم،... الفائدة السابعة: تعويد المسلمين على معرفة سعة العالم وعظمة الأمم والاعتراف لها بمزاياها حتى تدفع عنهم وصمة الغرور،... الفائدة الثامنة: أن ينشئ في المسلمين همة السعي إلى سيادة العالم كما ساده أمم من قبلهم ليخرجوا من الخمول الذي كان عليه العرب إذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضاً فكان منتهى السيد منهم أن يغنم صريمة، ومنتهى أمل العامي أن يرعى غنيمة،... الفائدة التاسعة: معرفة أن قوة الله تعالى فوق كل قوة، وأن الله ينصر من ينصره، الفائدة العاشرة: أنها يحصل منها بالتبع فوائد في تاريخ التشريع والحضارة وذلك يفتق أذهان المسلمين للإلمام بفوائد المدنية..."[1]

• **الأمثال القرآنية:**

دلالات لفظ المثل في معاجم اللغة تحيل على معاني: النظير والشبيه والعبرة والصفة والنموذج المنصوب للاقتداء، والمثل القرآني نظم متفرد من التنزيل يعرض أحوالاً للأمم والأفراد، ووقائع تاريخية واجتماعية للنظر والاعتبار واستخلاص السنن الإلهية التي تحكم حركة التاريخ والاجتماع البشري. وفي القرآن ضرب للأمثال وتصريف لها. وقد أخبرنا الله تعالى بضرب الأمثال في القرآن الكريم فقال عَزَّوَجَلَّ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الزمر: ٢٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١]. وقد ورد ذكر الأمثال في القرآن لأهداف عقدية وتربوية واجتماعية وحضارية، تصور المعاني بصور الأشخاص، قال

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج١، ص٦٥-٦٦-٦٧.

الراغب الأصفهاني: "والأمثال والنظائر تبرز خفيات الدقائق وترفع الستار عن الحقائق، وتري المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد"[1] فالأمثال القرآنية تقرب المجرد المعقول بصور إدراكية حسية تستثير العقل الإنساني للتأمل والتفكر والتذكر والاعتبار، وهو المقصود بتصريف الأمثال؛ أي تحويلها من أسلوب إلى آخر، ومن حالة إلى أخرى، ليكون أحدهما بياناً للآخر وتصويراً له، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: ٨٩] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤].

وإذا كان للأمثال القرآنية خصوصية متميزة من حيث هي مصدر من مصادر السنن ومورد من مواردها ومظانها، فذلك؛ لأنها تفترق عن طبيعة وشكل الأمثال سواء في الاصطلاح اللغوي أم في المتداول من أمثال العرب؛ إذ "يختلف المثل القرآني عن المثل السائر في اصطلاح اللغويين، بحيث امتياز صيغة المثل القرآني بأنها لم تنقل عن حادثة معينة أو واقعة متخيلة أعيدت مكررة تمثيلاً وضرب موردها تنظيراً، وإنما ابتدع المثل القرآني ابتداعاً دون حذو احتذاه، وبلا مورد سبقه، فهو تعبير فني جديد ابتكره القرآن حتى عاد صيغة متفردة في الأداء والتركيب والإشارة"[2] ويكفي للتدليل على ذلك أن مورد لفظ المثل في بعض الآيات يدل صراحة في دلالته على معنى "السنن"، فقد ذكر ابن كثير في معنى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٢]؛ أي "سنتهم"، وهنا تتجلى دلالة المثل على السنة، وارتباطه بها، وإمكانية استنباطها منه.

---

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال. **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد سالم هاشم، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، ج٢، ص٢٥٥.

(٢) السبحاني، جعفر. **الأمثال في القرآن الكريم**، بغداد: مؤسسة قرآن أهل البيت، ٢٠٠١م، ص١٨.

وللأمثال القرآنية وظيفة خاصة في تمكين العقل المسلم من معرفة سنن الله تعالى التي تضمنتها تلك الأمثال، خصوصاً ما تعلق منها بالأمم والجماعات، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣]. "والقرآن المجيد عندما يصرف الأمثال للناس، إنما يذكرهم بسنن الله تعالى التي يخضع لها كل هذا الوجود، بما في ذلك حركة التاريخ البشري، التي لا تخرج عن مسار سنن الله تعالى ونواميسه، المطردة بقضائه وقدره العام، لا يتخلف منها شيء إلا بإرادته خاصة، أو لحكمة منه تقتضي ذلك."[1]

إن العائد الذي أراده القرآن من ضرب الأمثال هو أن يتحقق ذلك الوعي السنني الاستخلافي، وتحصل الفعالية الحضارية للأمة باستثمارها للرصيد العقدي والتربوي والاجتماعي الذي تكتنزه هذه الأمثال، وما تحمله من قوة دفع تاريخية وأصالة مرجعية -من حيث إنتسابها إلى القرآن- لإنجاح حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، والانخراط في منهجية استنباط قواعد نهوض الحضارات وسقوطها من خلال اعتماد قراءة الأمثال في الدرس التاريخي (علم التاريخ) والدرس الاجتماعي (علم الاجتماع)، وهو ما يفيد عدم اقتصار فهم الأمثال على درس التفسير، كما يفيد تجديد علوم الإنسان ومن بينها علما التاريخ والاجتماع وفق الرؤية الإسلامية للعلوم الاجتماعية.

وقد علق الكفيشي على قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]، فقال: "في هذا المثل تذكير بسنن الله في الأمم الغابرة لأخذ العبرة منها، فما أنزله الله تعالى من عقاب في بعض الأمم الماضية، بعد أن كانت تعيش في رفاهية العيش والأمان ولكنها كفرت بأنعم الله تعالى، فلاقت جزاء كفرها فساداً اقتصادياً تمثل بقلة الإنتاج، الذي أدى بها إلى الجوع، واضطراباً أمنياً تمثل

(١) الكفيشي، عامر. **حركة التاريخ في القرآن الكريم**، بيروت: دار الهادي، ط١، (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)، ص١٣٩.

بالخوف، وفي ذلك إشارة إلى العلاقة بين قلة الإنتاج والخوف، وبين الكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من أجل توجيه السلوك الاجتماعي نحو الإيمان بالله تعالى والشكر لنعمه. فجاء المثل هنا بمعنى سنة الله وعقوبته، وبمعنى العبرة التي تذكر لتعتبر بها هذه الأمة حين تقرأ القرآن وتعتبر بأمثاله."[1]

• **السير في الأرض أو التاريخ: التاريخ والتجربة البشرية:**

كشف القرآن المجيد للعقل المسلم ثورية الفقه بوقائع التاريخ، فنما الوعي التاريخي لدى المسلم ودعاه إلى السير في الأرض، وقرن بين السير في الأرض واكتشاف السنن،[2] وقد دلت جميع الآيات القرآنية التي وردت فيها الدعوة إلى السير في الأرض سواء تلك التي جاءت بصيغة الأمر أو التي جاءت بصيغة الاستفهام على أن السير في الأرض يورث معرفة سننية واستبصاراً واعتباراً بوقائع الأمم وأحداث التاريخ. وقد نبه الله تعالى رسوله ﷺ إلى توجيه قومه بضرورة تسخير التاريخ كفعالية سننية حضارية قادرة على توليد أداء فعال وأصيل ومطرد وإنجاز استخلافي بمنسوب عال ومنهج تاريخي نقدي عبر عنه القرآن الكريم من خلال أسلوب التذكير بأيام الله في قول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥]. ولا شك أن الأيام كلها أيام الله، ولكن الإضافة هنا للتأكيد على التجارب الحضارية التاريخية الكبرى في مسار الإنسانية والتنبيه على تلك الوقائع التاريخية التي شكلت انعطافات وانقلابات حاسمة في تاريخ المجتمعات والحضارات. وحينما يشهد المسلم شهود الحق هذه الأيام وإن صارت في الزمن

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٢.

(٢) قال رشيد رضا: "وقد نبهت آية [آل عمران: ١٣٧] إلى أصل من أعظم أصول العلم التي تستفاد من السياحة واختبار أحوال الأمم، وهو العلم بسنن الله في شؤون البشر العامة المعبر عنها في هذا العصر بعلم الاجتماع،" وسيأتي تفصيل الحديث عن السير في الأرض ودلالته على السنن في الفصل الثالث من هذا الباب. انظر:

- رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٨، ص٢٩٠.

الماضي، ويستدعيها للتأمل والاعتبار، ويكشف عن السنن الحاكمة لها يكون قد تحقق بصفتي الصبر والشكر وهما كمال الإيمان، فيصبر حين يقرأ التاريخ ويقلب صفحاته ويمحص رواياته ويستنبط منه الدروس والعبر، ويصيغ السنن التي بها تحقيق وظيفة التسخير والاستخلاف والعمران، فيجازيه الرب على ذلك ويشكره على جهده المبذول نصراً وتمكيناً وعزاً وسلطاناً. إن في القرآن الكريم "دعوة متكررة إلى دراسة الاجتماع الإنساني ابتداء من الماضي حتى الحاضر، لاكتشاف آثار سنن الله في قيام المجتمعات وانهيارها. ولتدبر صدق هذه السنن الاجتماعي يستعان بأسلوب التأويل من خلال دراسة ما آل في الحياة الاجتماعية من تقريرات قرآنية. وهذا يتطلب أن تفرز التربية -علم اجتماع إسلامي- تكون قوانينه وقواعده منطلقات تساعد على التدبر الاجتماعي في القرآن..."[1]

ويتحسر رشيد رضا على تخلف المسلمين في مجال التاريخ وكيف كان عليه حال الأمة في قرون خيريتها وكيف صارت الأمور إلى تخلف بعد تصدر، وإلى ذل وفقد السلطان بعد عز وعمران، فقال: "عنيت أمتنا بالتاريخ عناية لم تسبقها به أمة، فلم تكتف بضبط الوقائع وتلقيها بالرواية كالسنة النبوية، بل تفننت فيها فصنفت في تاريخ الأشخاص كما صنفت في تاريخ البلاد والشعوب، ثم نوعت تاريخ الأشخاص فجعلت لكل طبقة تاريخاً، فنرى في المكاتب طبقات المفسرين، وطبقات المحدثين، وطبقات النحويين، وطبقات الأطباء، وطبقات الشعراء، إلى غير ذلك. ثم اهتدى بعضهم إلى استنباط قواعد العمران وأصول الاجتماع من التاريخ فصنف ابن خلدون في ذلك مقدمة تاريخه، ولولم تنقطع بنا سلسلة العلم من ذلك العهد، لكنا أتممنا ما بدأ به سلفنا، ولكننا تركناه وسبقنا غيرنا إلى إتمامه واستثماره؛ فالتاريخ هو المرشد الأكبر للأمم العزيزة اليوم إلى ما هي فيه من سعة العمران وعزة السلطان، وكان القرآن هو المرشد الأول للمسلمين إلى العناية بالتاريخ ومعرفة سنن الله في الأمم منه، وكان

(١) الكيلاني، ماجد عرسان. **مناهج التربية الإسلامية**، بيروت: مؤسسة الريان، ١٤١٩هـ، ص٣٤٣.

الاعتقاد بوجوب حفظ السنة وسيرة السلف هو المرشد الثاني إلى ذلك، فلما صار الدين يؤخذ من غير الكتاب والسنة أهمل التاريخ، بل صار ممقوتاً عند أكثر المشتغلين بعلم الدين، فإن وجد من يلتفت إليه، فإنما يكون متبعاً في ذلك سنة قوم آخرين."[1]

والذي قصدناه من التجربة البشرية هو تلك الخبرة الإنسانية سواء في مجال العلم أم في مجال الممارسة العملية، فالتجربة البشرية هي صيرورة من التراكمات أسهمت فيها جميع الحضارات وعملت رسالات السماء على ترشيدها وتقديم الإجابات الأساسية للتحديات الكبرى التي تواجهها في عمليتي التدافع والتداول. "وهنا تبرز الأهمية الكبيرة لعلوم التاريخ والأنثروبولوجيا الاجتماعية، والدراسات الحضارية، وفلسفة التاريخ والحضارة، والدراسات التاريخية والحضارية النقدية المقارنة... التي تستهدف ابتداء تسجيل الخبرة البشرية والمحافظة عليها وحمايتها من الضياع، ثم دراسة هذه الخبرة ونقدها وتقييمها في ضوء فلسفة التاريخ والحضارة ثانياً، والامتداد بالدراسة بعد ذلك إلى آفاق التقييمات النقدية المقارنة ثالثاً، لمراجعة ما يمكن مراجعته، وتثبيت ما يمكن تثبيته، واستخلاص ما يمكن استخلاصه، من الوعي بمنظومات سنن الله في الإيمان والتسخير والاستخلاف، وسننه في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، وسننه في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، وسننه في الدعوة والبناء والمواجهة، التي تشكل مجتمعة الأطر المعرفية والمنهجية المنتظمة والمتكاملة، للتحليل الموضوعي للظواهر، وتفسير سنن مآليتها الاجتماعية، واستشراف آفاق صيرورتها الحضارية، وآليات التحكم التسخيري الفعال فيها."[2]

ولعل تراكم هذه الخبرة يتم من خلال تداولها ونقلها وتحويلها من مجتمع لآخر على اختلاف المرجعيات الثقافية والهويات المتعددة ومستويات الوعي التسخيري وما يشكل ذلك من تهديد لخصوصية كل ثقافة وهي في حالة الاستضعاف حينما تستقبل

---

(١) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص٣١١.

(٢) برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، مرجع سابق، ص١٩١-١٩٢.

خبرة مجتمع آخر. فكل خبرة بشرية هي متحيزة لهويتها الثقافية وذاتيتها الحضارية، والوعي بهذا التحيز شرط منهجي وقيمي في تحقيق إمكانية استيعاب تلك الخبرة وتجاوزها. ولذلك فإن شرط الاستفادة من هذه التجربة البشرية بوصفها مصدراً من مصادر السنن هو أن لا تكون مناقضة لمقتضيات الاستخلاف وأن تستجيب لمقاصد الرسالات من العمران، مزودة بقاعدة عقدية وقيمية تتسم بالأصالة والفعالية، وأن تنضبط لغائية التسخير دون الوقوع في وظيفية تسخيرية مادية فصلت الوسائل عن غاياتها الإيمانية وأبعادها القيمية وتجلياتها السلوكية، ولعل هذه الشروط قد انتفت عن الخبرة الحضارية المعاصرة خصوصاً في نموذجها الغربي المادي.

وإذا كان القرآن الكريم قد علل السير في الأرض بتحقق النظر والاعتبار، فذلك لأنه جزء من رؤية القرآن المقاصدية التي تدعو العقل المسلم إلى الربط التعليلي التلازمي بين العاقبة ومسبباتها، ومآلات الأمور ومقدماتها، وهو ما سيكشف عنه المورد الرابع من موارد السنن في القرآن المجيد وهو: الآيات المشتملة على ربط الأسباب بالمسببات.

• الآيات المشتملة على ربط الأسباب بالمسببات:

من مظاهر موارد السنن في القرآن بالإضافة إلى القصص والأمثال مجموع الآيات القرآنية[1] التي ورد فيها الربط التعليلي بين الأسباب والمسببات، وبين المقدمات والنتائج مما يقوي النظر على استبصار المستقبل ووضع احتمالات للتوقعات الممكنة ومعرفة مسبقة بالعواقب والمآلات. ولذلك فالسببية التي تحث الآيات القرآنية على إدراكها واكتشافها عبر سنن الوجود الإنساني هي سببية غائية هادفة ترتبط بتوجيه الجهد الإنساني نحو مقاصد وغايات ومآلات الفعل في المستقبل، فـ"غليان الماء

(١) قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد: ٦]، ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦] ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وتفصيل الحديث في هذه الآيات وغيرها في الموضوع القادم بعنوان "طرائق استنباط السنن".

بالحرارة، يحمل علاقة مع سببه، مع ماضيه، لكن لا يحمل علاقة مع غاية ومع هدف، مالم يتحول إلى فعل إنساني وإلى جهد بشري، بينما العمل الإنساني الهادف يحتوي على علاقة لا فقط مع السبب، لا فقط مع الماضي، بل مع الغاية التي هي غير موجودة حين إنجاز هذا العمل، وإنما يترقب وجودها. أي العلاقة هنا علاقة مع المستقبل لا مع الماضي، الغاية دائماً تمثل المستقبل بالنسبة إلى العمل، بينما السبب يمثل الماضي بالنسبة إلى هذا العمل"[1] وتدل السببية في معناها العلمي على:

- أن لكل نتيجة أو حادث سبباً، وهو ما يعرف بمبدأ العلية.
- أن كل سبب هو بالضرورة في علاقته بأسباب أخرى -مع صرف الموانع وتوافر الشروط- مولد لنتيجة محققة وهو ما يعرف بمبدأ الحتمية والضرورة. "وأما إذا لم تفعّل الأسباب على ما ينبغي، ولا استكملت شرائطها، ولم تنتف موانعها، فلا تقع مسبباتها شاء المكلف أو أبى؛ لأن المسببات ليس وقوعها أو عدم وقوعها لاختياره. وأيضاً فإن الشارع لم يجعلها أسباباً مقتضية لمسبباتها إلا مع وجود شرائطها وانتفاء موانعها، فإذا لم تتوفر لم يستكمل السبب أن يكون سبباً شرعياً سواء علينا أقلنا إن الشروط وانتفاء الموانع أجزاء أسباب أم لا، فالثمرة واحدة."[2]
- أن الأسباب المتشابهة تستتبع نتائج مماثلة. وأن بين الأسباب والمسببات تناسباً يقضي بالتعميم في الظروف المتشابهة نفسها، وهو ما يعرف بمبدأ الاتساق والتناسب.

فهذه المبادئ الثلاثة التي تقوم عليها السببية نكتشفها في تلك الآيات التي ربطت بين الأسباب والمسببات، ويكون بذلك القرآن الكريم قد وضع الأساس الذي يكون وجود العلم بموجبه وجوداً مبرراً، وهو أساس السببية. ويمكن القول: إنّ مبدأ

(١) الصدر، **السنن التاريخية في القرآن**، مرجع سابق، ص٧٥.

(٢) الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، مرجع سابق، ج١، ص١٥٠-١٥١.

السببية هو مبدأ سنني كلي أقام الله عليه نظام الحياة وأجرى عليه مصالح العباد وقضايا الجزاء والحساب، حتى إن تحقق نصر الله تعالى لأوليائه في تلك الحالات التي تتدخل فيها الإرادة الإلهية، ويرى فيها الإنسان خارقة من الخوارق، إنما يتم من خلال جريان الأسباب مراعاة لمبدأ السببية، وقد أحسن تقي الدين السبكي وأجاد حينما أجاب عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع قدرة جبريل بفعل ذلك بريشة من جناحه، وقبل ذلك قدرة الله على تحقيق النصر دون رؤية الأسباب فقال: "وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها الله تعالى في عباده، والله تعالى هو فاعل الجميع والله أعلم."[1]

فهذا حديث عن الوحي مصدراً للسنن، أما المصادر التالية فهي في حقيقتها محكومة بمنظومة الوحي ورؤيته المعرفية والمنهجية، ولذلك أشار إليها القرآن ودعا إلى اعتبارها، وإحكام النظر بها، وتحكيمه فيها، حتى تستكمل البشرية معرفتها بعالم السنن وتواصل اكتشافاتها له. وهي كما يبدو مصادر تؤسس للرؤية التكاملية المتوازنة في فهم المنظومة السننية الحاكمة للاجتماع والعمران البشري بعيداً عن الوقوع في آثار الرؤية التجزيئية التي تفصل بين مبادئ العقل، ونداءات الفطرة، وعبر التاريخ، وروح الوحي، مما يفضي إلى تنافرية واهتلاكية تحول دون الاستثمار الأمثل والإيجابي والفعال للإمكانات التسخيرية والاستخلافية للمنظومة السننية.

ب- الفطرة:

بعد المورد الأول من موارد السنن الذي هو الوحي يأتي الحديث عن الفطرة مورداً ثانياً. ويعرف ابن عاشور الفطرة خلال حديثه عنها بوصفها أصلاً من أصول اعتبار المقاصد أنها: "ذلك النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق... فوصف الإسلام بأنه الفطرة معناه أنه فطرة عقلية؛ لأن الإسلام عقائد وتشريعات وكلها أمور عقلية أو

(١) ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٧، ص٣١٣.

جارية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به"[1] ولذلك تكون الفطرة هي جملة عقائد الدين وتشريعاته، وعليها تقوم المقاصد ومنها تستمد، "ويتفرع لنا من هذا أن الشريعة الإسلامية داعية أهلها إلى تقديم الفطرة والحفاظ على أعمالها وإحياء ما اندرس منها، واختلط بها. فالزواج من الفطرة، وشواهده ظاهرة في الخلقة، والتعاوض وآداب المعاشرة من الفطرة؛ لأنهما اقتضاهما التعاون على البقاء، وحفظ الأنفس والأنساب من الفطرة، والحضارة الحق من الفطرة؛ لأنها من آثار حركة العقل الذي هو من الفطرة، وأنواع المعارف الصالحة من الفطرة؛ لأنها نشأت عن تلاقح العقول وتفاوضها"[2] وإذا كانت الفطرة نظاماً وخلقاً إلهياً تتكامل فيه جملة من الاستعدادات الجبلية والخصائص الخلقية نفسياً وعقلياً واجتماعياً التي أهلت الإنسان للظفر بالكرامة، وأمدته بمعطيات للقيام بشرف الاستخلاف، صارت بذلك مصدراً أساساً من مصادر وموارد السنن متى بقيت هذه الفطرة على صفائها وسلامتها وبرئت من الفجور الأخلاقي والتدسية الاجتماعية وخضعت لنداء الوحي: "لأن الوحي يعبر عن حقيقة الفطرة ويضعها في بؤرة وعي الإنسان؛ ومن ثم يرشد سعي الإنسان وإرادته حتى يتمكن الإنسان من هدايتها وترشيدها؛ لتحقيق ذاته وغايته الإبداعية التسخيرية الإعمارية الخيرة، وبذلك يحقق "حب الله ومرضاته" بتحقيق فطرته السوية التي من أجلها خلقه الله واستخلفه وفطره عليها."[3]

ت- الخبرة والتاريخ:

المقصود هنا بالخبرة هي الخبرة المعرفية والمنهجية والعملية بوقائع التاريخ التي تراكمت عبر أجيال إنسانية في علاقتها بحركة الاجتماع والعمران، وانخراطها في

---

(١) ابن عاشور، محمد الطاهر. **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ط٣، ١٩٨٨م، ص٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص٥٩.

(٣) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني**، هرندن والقاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي و دار السلام، ط ١، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م)، ص٤٤.

معتركات حركة الابتلاء والتداول والتدافع والتجديد. فالتاريخ خزان للسنن، وخبرات الحضارات الإنسانية المتراكمة معين لا ينضب من العبر والاعتبار بما جرىٰ من السنن التي لا تعرف تبديلاً ولا تحويلاً. والقرآن الكريم أرشد إلىٰ ضرورة النظر في أحداث التاريخ والاعتبار بخبرات الأمم الماضية، واتخاذ ذلك مصدراً من مصادر معرفة السنن، والوقوف علىٰ مسالكها في قيام الحضارات وسقوطها، وتعميق الوعي السنني التسخيري والاستخلافي لدىٰ الأمة الإسلامية بامتلاكها لهذه الخبرة سواء تلك التي سجلها القرآن الكريم في آياته الخالدة، أو تلك التي دبجتها أقلام المؤرخين، والمفكرين، والفلاسفة، وعلماء الحضارة والاجتماع، عبر تاريخ الأمم والشعوب.

والوحي بما يوفره للإنسان الرسالي من إطار مرجعي علىٰ المستوىٰ المعرفي والمنهجي، وبما يختزنه من توجيهات لتعميق سننية الوراثة الحضارية للأمة، فإنه يمكن الأمة من تحقيق هدايتها علىٰ مستوىٰ تنمية الخبرات السننية وإبداعها، ونقلها، واستيعابها، وتداولها، وتجديدها؛ إغناء لمعرفتها السننية وتمكيناً لها من القيام بدور الشهادة علىٰ العالمين.

ومما يتحقق به هذا العمق السنني النابع من استثمار الخبرة والتاريخ مصدراً للسنن هو ما أفرزته خبرات الأمم والحضارات من علوم مثل "علوم التاريخ، والأنثروبولوجيا الاجتماعية، والدراسات الحضارية، وفلسفة التاريخ والحضارة، والدراسات التاريخية والحضارية النقدية المقارنة التي تستهدف ابتداء تسجيل الخبرة البشرية والمحافظة عليها وحمايتها من الضياع، ثم دراسة هذه الخبرة ونقدها وتقييمها في ضوء فلسفة التاريخ والحضارة ثانياً، والامتداد بالدراسة بعد ذلك إلىٰ آفاق التقييمات النقدية المقارنة ثالثاً، لمراجعة ما يمكن مراجعته، وتثبيت ما يمكن تثبيته، واستخلاص ما يمكن استخلاصه، من الوعي بمنظومات سنن الله في الإيمان والتسخير والاستخلاف، وسننه في الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد، وسننه في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، وسننه في الدعوة والبناء والمواجهة، التي تشكل

مجتمعة، الأطر المعرفية والمنهجية المنتظمة والمتكاملة، للتحليل الموضوعي للظواهر، وتفسير سنن مآليتها الاجتماعية، واستشراف آفاق صيروراتها الحضارية، وآليات التحكم التسخيري الفعال فيها."[1]

٢- طرائق استنباط ومعرفة السنن من القرآن الكريم:[2]

لا تنحصر كيفيات استخلاص السنن واستخراجها عند حدود استقراء الآيات التي ورد فيها لفظ السنة صريحاً في القرآن الكريم بصيغه المختلفة، فثمة سياقات متعددة من شأنها أن تسعف الباحث في سبيل تحقيق نفس الغرض. ولذلك يمكن الحديث عن طريقين عظيمين بهما تعرف السنن في كتاب الله تعالى:

أ- ورود لفظ "السنة" أو "سنن" بمختلف مضافاته:

والآية الأصل[3] في ذلك؛ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ

---

(١) برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، مرجع سابق، ص١٩١-١٩٢.

(٢) استفدت كثيراً من المبحث الذي عقده مجدي محمد عاشور بعنوان "ضوابط استخراج السنن"، وذلك على مستوى الوقوف على مجمل طرائق استخراج السنن من القرآن الكريم مع التصرف والإضافة. واقتصرت هنا على الحديث عن طرائق استنباط السنن من القرآن الكريم تمثيلاً لا حصراً، وإلا فالحديث في هذا الشأن يطول إذا امتد بنا إلى السنة النبوية والتاريخ الإنساني والحضارات العالمية وعلوم الإنسان والاجتماع. انظر:

- عاشور، **السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم؛ أصول وضوابط**، مرجع سابق، ص٦٩-٩٥.

(٣) لم أعدّ آية آل عمران هي الأصل في الاستدلال على هذا الطريق الأول من طرائق استنباط السنن في القرآن، كما هو اختيار مجدي محمد عاشور، في حين عددنا آية فاطر هي الأصل في ذلك لاعتبارات خمسة: **أولاً**: أنها أول ما نزل من القرآن وفيه ذكر للفظ "السنة"، وقد تقدم ذكر ترتيب نزول فاطر في جدول توضيحي، **وثانياً**: لأنها جاءت مضافة إلى الله بصيغة صريحة، وبينت مراد الله من سنة الأولين أن المقصود هو سنة الله في الأولين، **وثالثاً**: أنها أخبرت بحقيقة كبرى تتعلق بخاصيتي عدم التبديل وعدم التحويل اللذين يميزان طبيعة السنن، **ورابعاً**: دلالتها على أن التحقق بالوعي السنني مقترن بضرورة السير في الأرض والاعتبار بأحوال الماضين، **وخامساً**: تعلق سنن الله تعالى بعلمه عَزَّوَجَلَّ وقدرته: فهو الذي خلق السنن وهو يعلم طبيعتها وأسسها وكيفية حدوثها وما يترتب عنها وما يؤول إليه أمر من =

نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٢-٤٤].

ففي هذه الآيات وصف مواجهة المعاندين لمنهج الله بآليتين: آلية النفور والصد، وآلية الاستكبار والمكر السيء وما يترتب عن ذلك من حصول وعيد الله تعالى وقدره الذي لا يرد، وسنته القاضية بأن: الجزاء من جنس العمل، وهي سنة -كباقي السنن- لا تقبل تبديلاً ولا تحويلاً. ثم استنكر على هؤلاء المعاندين المستكبرين عدم اعتبارهم بعواقب ومآلات من خاضوا نفس تجربتهم التاريخية في مواجهة رسالات الله، ولم يستثمروا حقيقة سيرهم في الأرض "استدلالاً على أن مساواتهم للأولين تنذر بأن سيحل بهم ما حل بأولئك من نوع من يشاهدونه من آثار استئصالهم في ديارهم. وجملة ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤]. في موضع الحال؛ أي كان عاقبتهم الاضمحلال مع أنهم أشد قوة من هؤلاء فيكون استئصال هؤلاء أقرب"[1] ومن مثل ذلك أيضاً قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٧]. قال سيد قطب: "ولقد جعل الله هذه سنة جارية لا تتحول، لأن إخراج الرسل كبيرة تستحق التأديب الحاسم. وهذا الكون تصرفه سنن مطردة، لا تتحول أمام اعتبار فردي. وليست المصادفات العابرة هي

= يعارضها، وهو قدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على إيقاف عملها وتأثيرها متى أراد وكيفما أراد لا يعجزه شيء من ذلك، مؤكدة بذلك على البعد العقدي والتربوي للسنن. انظر

- عاشور، **السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم؛ أصول وضوابط**، مرجع سابق، ص٦٩.

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢٣، ص٣٣٧.

السائدة في هذا الكون، إنما هي السنن المطردة الثابتة. فلما لم يرد الله أن يأخذ قريشاً بعذاب الإبادة كما أخذ المكذبين من قبل، لحكمة علوية،لم يرسل الرسول بالخوارق، ولم يقدر أن يخرجوه عنوة، بل أوحى إليه بالهجرة.

ومضت سنة الله في طريقها لا تتحول"[1] وسنة الله في المتآمرين على رسله بإخراجهم من بلد إقامتهم، ومحاولة التأثير على الجماعة المؤمنة بإبعاد قادتها عن مراكز التغير والإصلاح وحملها على الرحيل سنة حاكمة على علاقات الأنبياء مع مخالفيهم إذا ما بلغوا مرحلة التخطيط لاستئصال منجزات النبوة والرسالة فيجازون بجنس ماسعوا إليه؛ وهو فقدهم لمركزهم الاجتماعي وعدم بقائهم بوصفهم جماعة بشرية موحدة ومعارضة. ويعلق باقر الصدر على هذه الآية فيقول: "هذه سنة سلكناها مع الأنبياء من قبلك، وسوف تستمر ولن تتغير. أهل مكة يحاولون أن يستفزوك لتخرج من مكة لأنهم عجزوا عن إمكانية القضاء عليك، ... (فـ)إذا وصلت عملية المعارضة إلى مستوى إخراج النبي من هذا البلد، بعد عجز هذه المعارضة عن كل الوسائل والاساليب الأخرى، فإنهم لا يلبثون إلاّ قليلا. ليس المقصود من أنهم لا يلبثون إلاّ قليلاً، يعني أنه سوف ينزل عليهم عذاب اللهّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى من السماء؛ لأن أهل مكة أخرجوا النبي بعد نزول هذه السورة. استفزوه وأرعبوه وخرج النبي ﷺ من مكة؛ إذ لم يجد له ملجأ وأماناً في مكة فخرج إلى المدينة ولم ينزل عذاب من السماء على أهل مكة، وإنما المقصود في أكبر الظن من هذا التعبير أنهم لا يمكثون بوصفهم جماعة صامدة معارضة يعني كموقع اجتماعي، لا يمكثون، لا كأناس وكبشر، وإنما هذا الموقع سوف ينهار نتيجة هذه العملية، سوف ينهار هذا الموقع، لا يمكثون إلاّ قليلاً؛ لأن هذه النبوة التي عجز هذا المجتمع عن تطويقها سوف تستطيع بعد ذلك أن تهز هذه الجماعة كموقع للمعارضة، وهذا ما وقع فعلاً"[2] وقد سبق ذكر الآيات القرآنية

(١) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٨١٥.

(٢) الصدر، **السنن التاريخية في القرآن**، مرجع سابق، ص٥٦.

الوارد فيها لفظ السنة بصيغته الصريحة بما يغنينا عن إعادتها هنا.

ب- طريق مبني على معنى الاطراد والعموم بما يفيد ترتب النتائج على المقدمات:

وهذا طريق عام متكرر في القرآن في مواضع كثيرة يستفاد من خلال صيغ لفظية وتراكيب أسلوبية يحضر فيها مكونا السنة: يكون الأول مقدمة يعبر عنها سلوك الإنسان وما يفرزه من مضاعفات اجتماعية واقتصادية وسياسية، ويكون الثاني نتيجة تتجلى في عادة الله تعالى وحكمه وأمره على هذا السلوك. ويمكن تحديد هذه الصيغ اللفظية والتراكيب الأسلوبية في:

- ورود فعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع تعليله:

ويستنبط ذلك من خلال النظر في سياقات الآيات التي جاء فيها فعل الله وارداً مع تعليله اعتباراً بأحوال الجماعات والأمم والحضارات. وترد هذه الآيات مقيدة بأحد أمرين:

- **التعليل:**

ومن ذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سنة التعارف بين الناس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣]، وقوله جل شأنه في سنة الاستدراج: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨]، قال ابن عاشور: "وقوله ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗا﴾ استئناف واقع موقع التعليل للنهي عن حسبان الإملاء خيراً؛ أي ما هو بخير لأنهم يزدادون في تلك المدة إثماً... وبذلك لا يكون الإملاء لهم خيراً لهم، بل هو شر لهم. واللام ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗا﴾ لام العاقبة كما هي في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا ٨﴾ [القصص: ٨]؛ أي: إنما نملي لهم فيزدادون إثماً، فلما كان ازدياد الإثم ناشئاً عن الإملاء، كان كالعلة له"[1] وقوله عَزَّوَجَلَّ في سنته

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٤، ص١٧٦-١٧٧.

في تداول الأيام واستبدال الأقوام : ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سنة التبشير والإنذار: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سنة الإنذار والإعذار: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥] وفي سنة تداول الأيام بين المسلمين وغيرهم قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠].

• **التعليق بالسبب:**

أن يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فعله معللاً بحرف من حروف السببية:

منها حرف الباء: وهذه بعض شواهده من القرآن: نحو قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سنة زوال النعم وتغييرها ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٧]. قال ابن عاشور: "والباء في ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ للسببية وما مصدرية؛ أي بسبب كفرهم"(١) وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سنته في الهلاك والاستئصال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥ - ١٦٦].

---

(١) المرجع السابق، ج٢٣، ص١٧٤.

ومنها حرف "الفاء" وهذه بعض شواهده المتعلقة بالسنن: ففي سنة زوال النعمة وتغييرها قوله سُبْحَانَهُ‌وَتَعَالَىٰ ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ: ١٦]، وفي سنة العقاب الدنيوي قوله سُبْحَانَهُ‌وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: ١١٣]، وفي سنة الهزيمة والسقوط قوله سُبْحَانَهُ‌وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

ومنها حرف"إنَّ" فقد ذكرها الزركشي (توفي: ٧٤٥هـ)[١] في الطرق الدالة على العلة مستشهداً بقوله سُبْحَانَهُ‌وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٣] وقد أثبت ذلك ابن جني وأهل البيان كما نص عليه السيوطي (توفي: ٩١١هـ)،[٢] وشواهد القرآن في ورود حرف"إن" للدلالة على السنن كثيرة منها: قوله سُبْحَانَهُ‌وَتَعَالَىٰ في سنة الإهلاك والاستئصال: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٢] قال ابن عاشور: "وجملة ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليل للإهلاك، وقصد به استئناس إبراهيم لقبول هذا الخبر المحزن، وأيضاً لأن العدل يقتضي أن لا يكون العقاب إلا على ذنب يقتضيه. والظلم: ظلمهم أنفسهم بالكفر والفواحش، وظلمهم الناس بالغصب على الفواحش والتدرب بها وقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ خبر مستعمل في التذكير بسنة الله مع رسله من الإنجاء من العذاب الذي يحل بأقوامهم. فهو من التعريض للملائكة بتخصيص لوط ممن شملتهم القرية في حكم الإهلاك، ولوط وإن لم يكن من أهل القرية بالأصالة إلا أن كونه بينهم يقتضي الخشية عليه من أن يشمله الإهلاك"[٣] وقوله سُبْحَانَهُ‌وَتَعَالَىٰ ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الدخان: ٣٤].

---

(١) الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله. **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار المعرفة، ١٣٩١هـ، ج٣، ص٩٦.

(٢) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج١، ص١٥٧.

(٣) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢١، ص٢٤٢-٢٤٣.

- **ورود فعل الله عَزَّوَجَلَّ في سياق الجملة الشرطية:**

ويدخل في المسلك الثالث من مسائل العلة، والشرط من صيغ العموم. وقد ذكر باقر الصدر في حديثه عن أشكال السنن التاريخية في القرآن شكل"قضية شرطية تربط بين حادثتين أو مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخية، وتؤكد العلاقة الموضوعية بين الشرط والجزاء، وأنه متى ما تحقق الشرط تحقق الجزاء"[1] والآيات الدالة على ذلك تأتي على وجهين:

الوجه الأول: تعليل ترتب الجزاء على وقوع الفعل: ومعناه أن وقوع الجزاء يكون نتيجة لوقوع الفعل: نحو قوله تَبَارَكَوَتَعَالَى في سننه في الهداية والضلال: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢١]، وقوله عز اسمه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله جل في علاه في سننه في الأرزاق ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٤]، وقوله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ...﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في سنة التداول الاستبدال: وقوله عز من قائل: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٩]، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في سننه في النصر بعد الاستيئاس: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠]. وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿...إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٨].

الوجه الثاني: امتناع الجزاء لوجود الفعل: فإذا وُجد الفعل امتنع الجزاء، فيكون بذلك تعليل عدم وقوع الجزاء بوجود المانع، فالسنة لا تقع إلا إذا توافرت الشروط واكتملت الأسباب وانتفت الموانع وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في سنة الأجل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ

(١) الصدر، **السنن التاريخية في القرآن**، مرجع سابق، ص٨٣.

بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت:٥٣].

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سنة التدافع ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١]، قال ابن عاشور: "والآية مسوقة مساق الامتنان، فلذلك قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ لأنا لا نحب فساد الأرض: إذ في فسادها بمعنىٰ فساد ما عليها اختلال نظامنا، وذهاب أسباب سعادتنا، ولذلك عقبه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو استدراك مما تضمنته (لولا) من تقدير انتفاء الدفاع؛ لأن أصل (لولا) (لو) مع (لا) النافية : أي لو كان انتفاء الدفاع موجوداً لفسدت الأرض، وهذا الاستدراك في هذه الآية أدل دليل علىٰ تركيب (لولا) من (لو) و (لا) : إذ لا يتم الاستدراك علىٰ قوله لفسدت الأرض لأن فساد الأرض غير واقع بعد فرض وجود الدفاع، إن قلنا (لولا) حرف امتناع لوجود. وعلق الفضل بالعالمين كلهم لأن هذه المنة لا تختص."[1]

- ورود فعل اللهّ عَزَّوَجَلَّ أو امتناعه منوطاً بحال أو مرتباً علىٰ صفة أو غاية:

وذلك واضح في الآيات التي يرد فيها النفي أو الكون المنفي، مثل"ما كان"، "لم يكن"، "ما كنا"، يكون فيها الفاعل هو الله تعالىٰ، أو لفظة "كم" تكون استفهامية تفتقر إلىٰ جواب، وخبرية لا تحتاج إلىٰ جواب مثل ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنبياء: ١١]. و"كم" الخبرية تأتي في الغالب في مقام الافتخار والمباهاة، أو"كأين" وهي بمعنىٰ "كم" الخبرية فهي تفيد التكثير ولذلك فهما معاً (كم وكأين) يفيدان معنىٰ التكرار والاطراد المبني عليه إثبات السنن. وأما إناطة ورود فعل الله أو امتناعه بحال فالشواهد عليه كثيرة؛ منها ما جاء في سنة الإهلاك: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧] وفي سنة الإنذار قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٨] وقوله عز سلطانه في سنة الأجل: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾ [الحجر: ٤]. وأما وروده

(١) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٠٣.

بالصفة قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سنة الإملاء: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨]. وفي سنة الإهلاك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]. وأما وروده منوطاً بغاية، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سنة التمحيص: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران: ١٧٩] وفي سنة تغيير النعم قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال: ٥٣].

- ورود لفظة (كذلك) أو(وكذلك) بمعنى: (مثل ذلك) في سياق قصصي أو حكم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

ترد "كذلك" أو "وكذلك" في القرآن الكريم إما باعتبارها اسم إشارة لتثبيت ما سيأتي بعدها، وتنويهاً بالخبر الوارد في الآية مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٢]، أو تشبيه شيء بشيء مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، وهذا الاستعمال الثاني هو المراد منه هنا لتعلقه بالموضوع. ففي سنته في إهلاك القوم المجرمين قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [يونس: ١٣]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤ - ٢٥]، وفي سنة التمكين قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ٢٢].

فهذه طرائق استخراج السنن من القرآن الكريم يعتمد فيها على استقراء الآيات التي يرد فيها بيان نفس المصير، والحكم على ذوات وأشخاص وأمم لاشتراكهم في صفات واكتسابهم لمقدمات ترتبت عنها نتائج بما يفيد علوم الإنسان والاجتماع على اكتشاف سنن الله في العمران، ويمكنها من الأدوات والطرائق المنهجية والإجرائية

المعينة على ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم: ٥].

ثالثاً: أهمية وضرورة الفقه السنني وأثره في تجديد الوعي الاستخلافي

تمهيد:

إن لفقه السنن غايات كبرى ومقاصد جليلة يكون التفريط فيها سبباً لوقوع مفاسد تلحق الضرر بالعمران البشري. ولذلك تدعونا الرؤية المقاصدية إلى النظر إلى الفقه السنني من جهة المصالح التي تترتب عن الإحاطة به وتسخيره، ومن جهة المفاسد التي تنجم عن الزهد فيه والاستهانة به. ويستلزم الحديث عن أهمية الفقه السنني ذكر مقدمات أساسية ينبني عليها حكم الضرورة والوجوب الذي يسري على فقه السنن، وهذه المقدمات هي:

- إن القول بفلسفة الصدفة والمصادفة والعبثية هو قول بفلسفة خرقاء ينكرها العقل والشرع ووقائع التاريخ وطبائع العمران والاجتماع البشري، وفي نفي هذه الصدفة والعبثية قول بجريان العمران والاجتماع البشري على سنن إلهية مطردة، وإثبات للعدل الإلهي الذي يكافئ الأفراد والمجتمعات والحضارات على قدر وعيها بهذه السنن واستثمارها لها.
- في أن للعمران سنناً يجري عليها لا تحابي أحداً، من اكتشفها وعمل بها دان له العمران وقاد غيره إلى منهجه ونموذجه الحضاري الغالب، ذلك أنه "على من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظر إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه. فمهما بحث الناظر، وفكّر، وكشف، وقرر، وأتى لنا بأحكام تلك السُّنن، فهو يجري مع طبيعة الدِّين، وطبيعة الدِّين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه."[1]

(١) عبده، **الإسلام دين العلم والمدنية**، مرجع سابق، ص١٣٢.

- في أن للسنن منهجاً ومنظومة تحتكم إليها، تسير وفقهاً ولا تخرج عنها، ولا داعي إلى إثارة معارك كلامية حول مشيئة الله المطلقة وحتمية السنن. فالله تعالى أراد بمشيئته أن يجري عالم الاجتماع والعمران وحركة التاريخ وسقوط الحضارات وقيامها على سنن مطردة: لا تحويل ولا تبديل. "إن المفكر المسلم الذي يرفض اللاهوت، ويعي دور الإنسان الرائع الفاعل، والمتناغم، في صناعة الحضارة، لا يشعر بأي تناقض، أو صراع بين فعل الإنسان، وبين رعاية الله، وعنايته... إن رعاية الله ليست (تكبيلا)، ولا (إلغاءً) لكل ملكاته، وأجهزته، واختراعاته... بل هي تحيطه برحمة عامة تشبه الرحمة التي يرسلها الله في الهواء، والماء، والشمس، لكل الناس ... ولا سيما هؤلاء الذين ينسجمون مع سننه، وأوامره، ونواهيه... إنهم الأكثر انسجاماً، وإبداعاً، وخيراً، وحقاً... في الإطار الإنساني الأوسع زماناً، والأعمق روحاً، والأرحب مكاناً... لكن التفسير المادي يعجز عن إدراك هذه المنظومة الرائعة، ويفصل -بحسم- بين ما هو مادي، وما هو روحي ومعنوي، ويضع أسواراً من التناقض، والصراع بين ما هو علوي، وما هو أرضي!!"[1]
- في أن تاريخ الحضارات ومستوياتها الإنجازية تتعلق بمدى قربها أو بعدها عن السنن الحاكمة للمجتمع والحياة، وللآيات الحاكمة للآفاق والأنفس، ومدى سيرها في الأرض -حساً ومعنى- واعتبارها بغيرها ودرجة ارتباطها بمقتضيات الوحي الإلهي وهدي النبوات والرسالات.

وإذا كانت "سنّة الله بيّنتها آيات كثيرة في القرآن الكريم، فنحن نجدها في آيات قصص القرآن وسيرة الأنبياء، وما جرى لهم مع أقوامهم، وفي أخبار الأمم السابقة وفي صراع أهل الحق مع أهل الباطل. ولو ذهبنا نعدّ هذه الآيات لألفيناها أكثر من آيات الأحكام، فعلى ماذا يدل هذا؟ نعتقد أن هذه الكثرة من آيات القرآن التي جاء فيها ذكر (سنة الله) ومعناها وتطبيقها، تدل دلالة قاطعة على أهمية المعرفة بسنّة الله في

(١) عويس، **التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون**، مرجع سابق، ص١٠٧، من مقدمة عمر عبيد حسنة.

الكون ووجوب فهمها من قبل المسلمين."[1]

١- أهمية وضرورة الفقه السنني وآثار ضعفه في تاريخ المسلمين:

ويمكن بيان أهمية فقه السنن وضرورته من خلال ما يلي:

أ- دعوة القرآن إلى أن فقه السنن جزء من الدين:

- يستمد الحديث عن فقه السنن أهميته وضرورته من دعوة القرآن إليه، والتشديد على أمره. وهذا وحده ينهض كفاية للتدليل على أهمية الفقه السنني، وأنه جزء من الدين، وأن معرفته، والإحاطة به، واستثماره، والعمل به، واجب شرعاً ومطلوب واقعاً؛ إذ صار من مقتضيات التكليف وتمام الإيمان بالوحي العمل بما جاء فيه من الدعوة إلى العلم بالسنن، وإعمالها في النظر والاعتبار، وإقامة العمران، والتمكين له، وتحصينه وحمايته مما أصاب الأمم السابقة من علل الانحطاط بسبب التفريط في هدايات السنن وبصائر الوحي؛ "لأن القرآن الكريم قد علم الرعيل الأول من المسلمين طبائع الملل وقوانين الاجتماع وحوادث التاريخ، حيث كان التعامل مع هذه السنن والقوانين بشكل تلقائي... ولقد بقي الأمر على هذا الحال إلى أن غابت عن المجتمع الإسلامي سنن التبصر بالعواقب غفلة عن سنن الله في الأنفس والآفاق، فدالت دولة الإسلام وذاقت مجتمعاته وبال أمرها فساداً عمرانياً وسقوطاً حضارياً لما تركت سنن التحصين والصيانة، التي تحرس موروث سنن البناء والتمكين. حتى قيض الله لهذه الأمة في العصر الحديث من تنبه إلى الثروة السننية التي يزخر بها القرآن الكريم، وإلى غفلة المسلمين عنها، وشدة حاجتهم إلى تصحيح اعتقادهم في أفعال الله تعالى ومشيئته في خلقه، وأنها تنفذ وفق سنن حكيمة وطرائق قويمة، فمن سار عليها ظفر بمشيئة الله، ومن تنكبها خسر بما كسبت يداه[2]."[3]

---

(١) زيدان، **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٢٥.

(٢) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٤، ص١٤١.

(٣) السيسي، محمد. "السنن الاجتماعية في القرآن الكريم"، **مجلة رسالة القرآن**، المغرب، العدد (١)، (محرم-صفر-ربيع الأول١٤٢٥هـ/ ماي-أبريل-ماي٢٠٠٤).

إن إقامة دين الله في الأرض والعودة بالأمة إلى عمرانها الإسلامي الإنساني العالمي لا يتحقق إلا بإتقان هذا الجزء من الدين. وبهذا المعنى جاءت السنن مبسوطة في القرآن المجيد عملاً بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩] فهي من أصول هذا الكتاب أنزلها الله تعالى على رسوله الكريم هداية للأمة لبناء عمرانها، ورحمة بها من أن تضل عن السبيل المفضية إلى ذلك، وتوقياً لها من أن تقع في علل من سبقها من الأمم، وبشرى لها من حيث صارت شاهدة بهذا الفقه على الناس مؤهلة لقيادة العالم، قال شهاب الدين الآلوسي (توفي: ١٢٧٠هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: "والمراد من (كُلِّ شَيْءٍ) ما يتعلق بأمور الدين أي بياناً بليغاً لكل شيء يتعلق بذلك، ومن جملته أحوال الأمم مع أنبيائهم"[(١)] وقد علق عبد الكريم زيدان على ماذكره الآلوسي من معنى الآية بقوله: "ومن الواضح أن أحوال الأمم مع أنبيائهم التي اعتبرها الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحق أنها من جملة الدين، هذه الأحوال تعني ما جرى لهم مع أنبيائهم وما حلّ فيهم بسبب سلوكهم معهم وموقفهم منهم وفقاً لسنّة الله، وما طلبه الله منا من الاتعاظ والاعتبار بهم. فيتحصل من ذلك أن معرفة سنن الله جزء من معرفة الدين أو معرفة لجزء من الدين، وأن هذه المعرفة ضرورية."[(٢)]

وإن كان الأمر في حقيقته بعد التأمل في آيات القرآن الكريم أعظم من أن يكون مجرد جزء، بل هو كما سيأتي بيانه منظومة من الكليات التي تنتظم داخل كليات الدين وأصول الشريعة. ولا نغالي في القول إذا قلنا: إن كثيراً من كليات الشريعة لن تراعى في التطبيق مالم تستكمل الأمة الأخذ بكليات السنن على مستوى إقامة العمران البشري، بل يمكن القول: إن من مقاصد الشريعة الكبرى هو تحقيق أعلى درجات

---

(١) الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٤، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ج١٤، ص٢١٤.

(٢) زيدان، **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، مرجع سابق، ص١٦.

ترقي الوعي الإنساني بالأخذ بالسنن، واستثمارها؛ لأنها عنوان الدين، وأساس العدل الإلهي، ومناط إقامة مجتمع آمن، فبالسنن كما يرى ابن القيم "عرف الله، وبها عبد، وبها أطيع، وبها تقرب إليه المتقربون، وبها نصر حزبه ودينه، وبها أرسل رسله وشرع شرائعه، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد. فالوقوف معها والالتفات إليها والنظر إليها هو الواجب شرعاً، كما هو الواقع قدراً... هي محل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، والنجاح أو الخسران."(١)

ويمكن القول: إنّ منظومة السنن ليست فقط جزءاً من الدين كما هو مبين في القرآن، بل إن فهم الخطاب القرآني في عالميته وإطلاقيته وبنائيته الموضوعية وتعادليته مع الكون لا يكتمل إلا باعتماد المدخل السنني مدخلاً رئيساً في فهم واستنباط معاني القرآن المجيد، ولذلك حق لرشيد رضا -كما يقول حازم زكريا- أن "جعل معرفة سنن الله تعالى في خلقه إحدى الوسائل الضرورية من أجل فهم واستنباط معاني القرآن الكريم، وهذا الأمر لم نعهده عند أحد من قبله من المفسرين -ما خلا أستاذه محمد عبده طبعا- فهذه إذاً إضافة منهجية أضافها رشيد رضا في مجال الأدوات والمناهج العلمية المعتمدة في دراسة وتفسير القرآن الكريم، وتكتسب هذه الإضافة المنهجية قيمتها العلمية من خلال اعتمادها المباشر على نصوص الكتاب والسنَّة في تأصيل مشروعيته العلمية، وهكذا يمكننا أن نعد رشيد رضا، أحد رائدي مدرسة التفسير السنني في العصر الحديث."(٢)

ب- تبصر واعتبار وشهادة على العالمين:

تبرز أهمية الأخذ بالسنن فقهاً وصياغة وتسخيراً وتنزيلاً من خلال تبصر العلل والأسباب المفضية إلى انهيار العمران وسقوط الحضارات، والنظر في أحوال الأمم

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي. **مدارج السالكين**، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢، (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)، ج٣، ص٤٠٨.

(٢) محيي الدين، حازم زكريا. **مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي: السيد رشيد رضا نموذجاً**، دمشق: دار النوادر، ط١، (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ص٢٩٤.

والحضارات المتعاقبة عبر التاريخ والاعتبار بما حصل لها من أنواع العذاب النفسي والاجتماعي، فانحسر أثرها وذهبت ريحها، وزال عنها بريق قوتها، ووهج عمرانها لما صرفت وجهها عن منهج الله، فأحكم عليها طوق السنن المطردة، فصارت أحاديث ومزقت كل ممزق. وفي هذا المعنى يقول الإمام محمد عبده رحمه: "إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته قد وضع للأمم سُنناً متبعة ثم قال ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الفتح: ٢٣]. وأرشدنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في محكم آياته، إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزّها، ولا بادت، ومحي اسمها من لوح الوجود، إلا بعد نكوبها عن تلك السُّنن التي سنها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان، حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل، وصحة الفكر، وإشراق البصيرة، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة، والتدبر في أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا. فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين، هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها، في التحلي بالفضائل التي أشرنا إليها. وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها، سنة الله ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم، ولا تتبدل بتبدل الأجيال."[1]

ومما لا شك فيه أن في معرفة السنن عوناً على تلمس مواطن الضعف والخلل في مسيرة الأمة الحضارية، ودفعاً لها للأخذ بمقتضيات النهوض والوراثة الحضارية. و"لو التزم المسلمون الرؤية القرآنية الكونية... لالتزموا دائماً المنهج العلمي السنني الموضوعي الشمولي، ولانفتحت الرؤية الإسلامية على عوالم الفطرة السوية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، ولعلمناها وانتفعنا بها قبل سوانا، ولأغنينا هذه المجالات بالغايات والمقاصد الروحية السوية الخيرة الحقيقية للفطرة السوية الإنسانية والسنن الكونية... (و) لكانت رؤيتهم (المسلمين) في شؤون التسخير والإعمار رؤية توحيدية

(١) عبده، محمد. **دروس من القرآن الكريم**، كتاب الهلال عدد (٩٦)، القاهرة: دار الهلال، (١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م)، ص١٩٠ مقتبس من:

- محيي الدين، **مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي السيد محمد رشيد رضا نموذجاً**، مرجع سابق، ص٨٦-٨٧.

تكاملية علمية حية سننية، لا يعتريها الغبش والفتور، ولا تتشعب بها الرؤى العشوائية التواكلية بين طلب السنن وأوهام الخرافة والشعوذة"[1] ولعل الغفلة عن هذا -سواء كانت تلك الغفلة إعراضاً كلياً عن السنن، أم التباساً وغموضاً في الفهم، أم خلطاً بين السنن الجارية والسنن الخارقة، أو عدم ضبط المنظومة الكلية للسنن- قد ورث الأمة قروناً من حالة الاستضعاف الحضاري أمام طغيان النموذج الاستكباري الغربي، فذاقت الأمة بسبب إعراضها عن السنن وعدولها عنها عاقبة أمرها خسراناً لموروث عمرانها، وفساداً في الأنفس والدول والجماعات، وتشرذماً مريعاً في تلمس طريق الخلاص. وهو ماعبرت عنه تعدد مشاريع الإصلاح والنهوض التي لم يتحقق من أهدافها إلا النزر اليسير مقارنة مع الجهد المبذول، والفرص المتاحة، والزمن الذي استغرقته هذه المشاريع الإصلاحية. وإنه لمن "المؤسف أن الغرب تلقف المنهج العلمي السنني من دون تقبل الرؤية القرآنية التوحيدية، عند احتكاكهم بالعالم الإسلامي... (و) تعرفهم على منهج السنن المادية في الوجود المادي (العلوم الفيزيائية) ومن ذلك المنهج العلمي السنني الفيزيائي، واهتدوا لاحقاً إلى سنن الفطرة في الإنسان والمجتمع، فتكونت لديهم أيضاً العلوم الاجتماعية وإن كان ذلك من منظور مادي."[2]

وبناء على ماسبق، فإن تحقيق أمر الشهادة على العالمين، والتصدر لقيادة أمم الأرض مشروط بمدى إحكام المسألة السننية: فهماً وصياغة وتسخيراً وتنزيلاً؛ عبر السير في الأرض، وتبصر أحوال الأمم وتتبع أخبارهم الماضية، والإحاطة بالعلل التي لحقت بهم فأوقعتهم في التمزيق لحضاراتهم، فصاروا كأن لم يغنوا بالأمس. "وحين ندقق النظر في أوضاع المسلمين الراهنة، ونستقرئ الوقائع التاريخية التي انتهت بهم إلى التخلف والانحطاط، نجد أن هذه الأمة ترجع في جزء كبير منها إلى الغموض الذي يسود فكر

---

(١) أبوسليمان، **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني**، مرجع سابق، ص٩٩-١٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٣-١٠٤.

كثير من المسلمين حول طبيعة السنن، وعلاقتها بالجهد البشري... فكثير من المسلمين اليوم لا يعيرون مفهوم السنن ما يستحقه من اهتمام، وكثير منهم لا يدركون أصلاً مفهوم (سنة الله في الخلق) إدراكاً صحيحاً، فنراهم يرفضون عن وعي، أو غير وعي علاقة ارتباط النتائج بأسبابها، لأنهم يظنون أن القول بارتباط النتائج بأسبابها ارتباطاً ضرورياً يعني الحتمية على الله عَزَّوَجَلَّ، ومن ثم يعني تعطيل الإرادة الإلهية."[1]

إن استعادة موقع الوسط والشهادة على الناس رهين بتوبة الأمة من حوبة الانفصال عن الفقه السنني، وما أشد الحوبة إذاكانت مفاسدها عظيمة تمس الفرد وتتجاوزه إلى المجتمع والدولة والأمة! وهي توبة تقتضي تخريج قيادات علمية وميدانية: تفقه السنن وتحيط بها علماً بعمق معرفي، وأصالة منهجية تصل نفسها ببصائر الوحي ووقائع التاريخ ومستجدات علوم العصر، لا سيّما العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ت- القيمة أو الأهمية التسخيرية والإنجازية للفقه السنني:

إذ إنّ العلم بالسنن من أقدر الوسائل والطرق المفضية إلى تحقيق مقصد أمانة الاستخلاف والقيام بها، وعمارة الأرض، وتسخير إمكاناتها ومقدراتها "فالقيام بأمانة الاستخلاف الإنساني لا تتم إلا بالتعرف عليها، لأن أمر تسخير الكون مرتبط إلى حد كبير بحسن إدراكها، ذلك أن التعرف عليها لا يمنح الإنسان القدرة على تسخير الكون فحسب، وإنما يمنحه قدراً كبيراً من التحكم بالنتائج، والتخفيف من الآثار السلبية ومغالبة قدر بقدر، والفرار من قدر إلى قدر، وفي ذلك انفساح هائل أمام طاقات الإنسان غير المتناهية، وتحكم في الكون الذي خلق الله الإنسان سيداً له، وجعله محل تسخيره."[2]

إن استعادة الفاعلية الإنجازية والبنائية المثمرة، التي تتأسس على فقه توحيدي تسخيري للكون والعمران، لا يمكن أن تتم إلا عبر الفقه السنني بمنظوماته وأبعاده

(١) كنعان، **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق**، مرجع سابق، ص٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠، من مقدمة عبيد حسنة.

التي تترابط فيها سنن الأنفس والآفاق: معرفة وعلماً، مع سنن الهداية والتأييد: إيماناً ويقيناً، فتقدم ضمانات حقيقية لحماية العمران من الفساد، وتنقل العالم -في تعامله مع الكون والإنسان والحياة- من فلسفة الغرب القائمة على مفهوم التدمير والسيطرة إلى رؤية الإسلام التوحيدية القائمة على مفهوم التسخير والرحمة.

ث- في العلم بالسنن تبصر بحركة التاريخ واستشراف للمستقبل، وإدراك لعواقب الأمور ومآلاتها، وللتهديدات التي يمكن أن تنال من سلامة العمران وصلاحه:

ذلك أن من يجهل السنن، ولا يدرك طبائع الأمم وقواعد الاجتماع، وأخبار التاريخ هو أعجز من أن يمد بصره إلى المستقبل القريب أو البعيد، وهو بذلك فاقد للبصيرة الحضارية والرشد الاستخلافي. إن فقه السنن من حيث هو كذلك صلة وصل بين عالم الشهادة وعالم الغيب، فجزء من الغيب يصير فيما بعد شهادة، وفي علم السنن مكنة (اقتدار) علمية على استنباط الدروس والعبر، وتقعيد القواعد، وتأصيل الأصول التي تجعل الأمة تعرف ما الذي تريده في مستقبلها، فتتحكم به بناء على استقراء متبصر، ورؤية متوازنة لا يتعارض فيها ذلك مع قدر الله ومشيئته، ولا تستسلم لما هي فيه من الضعف والهوان؛ إذ البشارات القرآنية والنبوية تنهض شاهدة على نهوض الأمة بعد كبوتها الحضارية، تلقي هذه البشارات بالمسلم نحو استشراف المستقبل والإعداد له بوعي سنني متكامل.

ولعمري إنه لتجديد لأمر الدين في عصر الوهن والدخن بعدما اندرست معالم الفقه السنني، وخضع أفراد الأمة لأقدار الهزيمة ولم يغالبوها بأقدار أخرى إلا من رحم ربي. وفي فهم الصحابة وقول عمر بن الخطاب المشهور حين قال له أبو عبيدة "أفراراً من قدر الله فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كانت لك إبل، هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصيبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها

بقدر الله؟"[1] كفاية في ذلك، ومنه انتزع ابن القيم إشارته اللطيفة لما بين كيف يدفع العارف قدراً بقدر، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بأن دفع القدر الذي وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوي، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان؛ فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار؛ لا استسلام لها وترك الحركة والحيلة، فإنه عجز، والله تعالى يلوم على العجز."[2]

إن ترك العمل بالسنن مع الجهل بها هو عجز، وتعطيل للحكمة والشرع، ومنافاة لحقيقة التوحيد وروح الشريعة، وإبطال لأحكامها، واستسلام لأقدار الحاضر المأزوم، وإصرار على عدم إعلان التوبة من حوبة التثاقل إلى الأرض، وعدم رؤية المستقبل، والتحول إلى سعة الاطمئنان إلى رحمة الله تعالى بالاعتبار بسنته، والعمل بها، وتسخيرها واستثمارها. وقد أشار سيد قطب إلى هذا المعنى وغيره وهو يتناول آية آل عمران فقال: "والقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض. يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور. فهم ليسوا بدعاً في الحياة؛ فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام. واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق. ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين؛ بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول."[3]

---

(١) البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، كتاب: الطب، باب: ما يذكر في الطاعون، ج٥، ص٢١٦٣، حديث رقم: (٥٣٩٧).

(٢) ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين**، مرجع سابق، ج١، ص٢٠١. وانظر أيضاً:
- العزي، عبد المنعم صالح العلي. **تهذيب مدارج السالكين**، القاهرة: دار البشير، ط١، ١٩٩٧م، ص١٣٠.

(٣) قطب، **في ظلال القرآن**، مرجع سابق، ج١، ص٤٥٠.

ج- في فقه السنن نجاة الأمة من التيه المنهجي والمعرفي والقيمي الذي هو عنوان الأزمة الحضارية المعاصرة، وهو تيه أنتج عمراناً فاسداً، أو قل خراباً لا عمراناً:

لقد تم تبعيض الدين حينما ضمر فقه النظر والاعتبار في أحوال الأمم والحضارات، وأهمل الفقه السنني الاستخلافي والتسخيري، فـ"إحدى وثلاثون آية تتحدث صراحة عن التسخير لم تكن كافية، كما يبدو، لتثير فضول المشتغلين في عالم الاستنباط، وليرسموا في مخيلتهم سؤالاً عن الحكمة من تكثيف خطاب التسخير، وهم يدركون قبل سواهم، أن ما من صغيرة أو كبيرة في كتاب الله إلا وللخالق عَزَّوَجَلَّ فيها مقصد وغاية، فكيف يقرأون القرآن الكريم قراءة تدبر وعناية، ولم يستوقفهم هذا الحضور الضخم لنصوص التسخير،... التي تحمل معنى التأمل والبحث في خلق الله،... فهل كان وجودها في الكتاب العزيز لمجرد التزيين أم تكملة لعدد الآيات أم للتسلية كما يحلو للبعض أن يصف بعض ما جاء في القرآن الكريم"[1] لقد توسع الخيال الفقهي في الفقهيات والشرعيات وقصر في الاجتماعيات والإنسانيات والكونيات، وهذا الأخير هو الفقه الذي لم ينجز بعد إلا بأقدار لا ترقى إلى اهتمام الوحي ودعوته إلى إعمال النظر فيه، وهي مسؤولية العلماء مهندسي سلوك المجتمع وأفكاره ونظامه المعرفي، وهذه إشارة إلى إمكانيات العلماء وقدراتهم وفعاليتهم في إحداث التأثير المطلوب داخل المجتمع.

لقد طغى فقه الفروع، وتضخمت مساحاته، وضمر تبعاً لذلك فقه العمران والحضارة، وتسربت إلى الأمة أمراض نفسية واجتماعية هددت كيانها الاجتماعي ووحدتها العقدية والفكرية، وقوتها الروحية والأخلاقية، وساد الزعم بعدم ثبات السنن، وحرم النظر في العلل والأسباب، والتبس فهم العلاقة بين السنن والإرادة الإلهية، واشتغلت نخب الأمة ومراجعها العلمية -إلا بعضهم- بجدالات ونظريات

---

(١) جابر، حسن. "مدخل مقاصدي للتنمية"، ضمن كتاب: **مقاصد الشريعة وقضايا العصر: مجموعة بحوث**، مرجع سابق، ص٩٦-٩٧.

كلامية وفلسفية، استنفدت أغراضها وزالت عنها الشروط التي أنتجتها، وانتشرت فهومات تشرع للتواكل، وتقعد للسلبية والانهزامية، وتعطل حركة الإبداع لصالح عقيدة الجبر أو الإرجاء التي صارت كل واحدة منهما التيار الشعبي السائد. كما سمح المسلمون لصورية المنطق اليوناني وأسطورية عقائده وخيالات فلسفته[1] أن تصرف كثيراً من الإنتاجات العلمية عن الرؤية القرآنية لقضايا عقدية واجتماعية "فكانت لتلك الغفلة في التعامل مع ذلك الفكر الإغريقي والحضارة الإغريقية أسوأ الأثر على تلك المسيرة (يقصد مسيرة الفكر الإسلامي التاريخية) ووجهتها العقائدية والفكرية والحضارية، لتستنزف تلك الأخطاء طاقة العقل المسلم باستخدامه وتوظيفه سياسياً في سفسطات عقدية غيبية لاهوتية وهمية، ولتصرفه عن مهمته الحضارية التسخيرية الإبداعية الحياتية الإعمارية."[2]

ولا يمكن تجاوز هذا الخلل المنهجي والمعرفي إلا من خلال إعمال منهج القراءتين: قراءة الكون -الكتاب المنظور- وما تختزنه ظواهره المادية والتاريخية والإنسانية من أسرار وسنن بهدف تسخيرها وإعمال طاقات العقل فيها، وقراءة القرآن الكريم -الكتاب المسطور- للاستهداء ببصائره، وكشفاً لسنن عوالم النفس والمجتمع والاقتصاد والسياسة بلوغاً للتي هي أقوم وتحقيقاً لمعاني الشهادة والخيرية. ولا يعني ذلك أن

---

(١) شكل دخول المنطق اليوناني إلى بلاد المسلمين منعطفاً خطيراً في تاريخ الأمة خلف آثاراً سلبية عملت على تحييد الرؤية الكونية القرآنية، وتمزيق وحدة الأمة الفكرية، وصرفها عن القيام بمقتضيات التسخير والاستخلاف والعمران، ذلك أن -يقول أبو سليمان- "الفلسفة الأسطورية السفسطائية ومنطقها الصوري الإغريقي كان في جوهره منهجاً أسطورياً نظرياً وترفاً عقلياً للسادة المترفين "الأحرار" لا ينتمي إلى علم الواقع والفطرة والسنن الكونية، ولا إلى البحث والنظر والتأمل العلمي الموضوعي في الكون وحقائقه، سبيلاً وأسلوباً إلى تسخير الكون وإعماره؛ بل كان فكراً مترفاً غارقاً في الذاتية والأسطورية والرؤى النظرية التي تستنفد طاقة الفكر في شؤون قد لا يكون لها وجود أصلاً ولا طائل تحتها، وتنطلق من التأملات الذاتية لجلسات السادة وشطحاتهم وأوهامهم." انظر:

- أبو سليمان، **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني**، مرجع سابق، ص٤٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣٥.

العلم بالسنن هو أفضل من علم الفقه ومقدم عليه، ولكن المقصود هو إرجاع الأمر إلى نصابه، وعدم الانسلاخ من الرؤية الكلية والمتوازنة للدين التي تجعل من إقامة العمران أصلاً كلياً وضرورياً لا مجرد فرع من فروع الشريعة، ومقصداً من المقاصد العالية التي جاءت لتحقيقها رسالات أنبياء الله عَزَّوَجَلَّ. بل يمكن الذهاب أبعد من ذلك مع أبي حامد الغزالي في ترتيبه للعلوم وفق المنظور التوحيدي الإسلامي إذ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، وسنته في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته، وللتوصل به إلى سعادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر مايسر لهم، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراسخون في العلم."[1]

إن فقه السنن بحسب رؤية الغزالي مطلوب لذاته، ولا يمكن أن تفرط فيه الأمة أو تغفل عنه؛ إذ به تعرف الأمة ربها، وتحصل سعادتها، وتعمر دنياها، اعتباراً لما سلف من سنة الله في خلقه. بل يمكن القول مع رشيد رضا أن "العلم بسنن الله تعالى في عباده، لا يعلوه إلا العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، بل هو منه، أو من طرقه ووسائله. أما العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله فهو معراج الكمال الإنساني، وأما العلم بسنته تعالى في خلقه فهو وسيلة ومقصد، أعني أنه أعظم الوسائل لكمال العلم الذي قبله ومن أقرب الطرق إليه، وأقوى الآيات الدالة عليه، وأنه أعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية، فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء"[2] ويتضح من كلام الغزالي ورشيد رضا أن للعلم بالسنن آثاراً إيمانية عقدية وتربوية اجتماعية على النفس والمجتمع تتجلى في تحقق القرب من الله تعالى والعلم به وبصفاته

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **إحياء علوم الدين**، بيروت: دار الندوة الجديدة، (د.ت.)، ج١، ص٣٩.

(٢) رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٧، ص٤٩٩-٥٠٠.

وأفعاله والاستجابة لأمره توحيداً له واستخلافاً في الأرض. لقد تضافرت عوامل وأسباب كثيرة دفعت بالعديد من علماء الأمة إلى أن يصرفوا جهودهم في استنباط الحكم التشريعي من الآيات، دون صرف جهد مماثل لآيات السنن، وشروط إحكام العمران البشري، ومقومات فقه إخراج الأمة الشاهدة. وبقيت آيات القرآن العديدة التي تضمنت قصص الأنبياء وتجاربهم مع أقوامهم وما تحيل عليه من سنن عمرانية ومن دروس في الفقه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي تتلى في العبادة فحسب.

٢- أثر الفقه السنني في تجديد الوعي الاستخلافي:

الاستخلاف في حقيقته أصل وجودي إنساني يقوم على أسس عقدية ومعرفية وعملية وقيمية، فهو حركة الإنسان في اتجاه تحقيق العبودية لله وحده، وعدم الخضوع لطواغيت الأرض وجبروت المادة، وهو أيضاً حركة الإنسان نحو المجتمع والطبيعة، لاكتشاف ما ينتظمهما من سنن وأنظمة في اتجاه تحقيق السيادة في الأرض بقيم التوحيد الناظمة لوظيفة العبودية لله وحده والموجهة لمنهج تسخير الطبيعة. "فالخلافة[1] بمفهومها الحضاري الذي يعني: تحقيق العبودية لله تعالى والسيادة في الأرض؛ عبر التوافق والانسجام مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، والاستمتاع

(١) من يستقرئ كلام المفسرين لآية الاستخلاف في سورة البقرة يقف على اتجاهين اثنين في تحديد معنى الخلافة، **الاتجاه الأول**: أن الاستخلاف عن من سبق من الأمم أو الأفراد، فهي خلافة الإنسان بعضه بعضاً، وتتحقق بزوال جيل ليخلفه جيل آخر؛ ولأن معنى الزوال حاضر فيها، فلذلك لا يجوز أن يكون الإنسان خليفة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه حي لا يموت، وهذا الاتجاه هو ما عليه جمهور المفسرين. **الاتجاه الثاني**: أن حقيقة الاستخلاف هي عن الله عَزَّوَجَلَّ سواءً في الأرض أو المال. وهذا ما ذهب إليه بعض المفسرين ولا سيّما متأخريهم. والذي يتأمل في الاتجاهين يخلص إلى أن "القول بخلافة الإنسان لله عَزَّوَجَلَّ في الأرض جائز ولايلزم من ذلك خلو الأرض من سلطان الله عَزَّوَجَلَّ. فكما أن المؤمنين يرثون الأرض يتبوأون من الجنة حيث يشاءون في الآخرة، والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يورثهم إياها، دون أن يلزم من هذا المعنى والمفهوم موت المورث جَلَّجَلَالُهُ أو غياب هيمنته أو خلو جنته من سلطانه... فالقول هنا في وصف الله تعالى بأنه المورث كالقول في وصفه بأنه المستخلف. انظر:

- الدسوقي، فاروق. **استخلاف الإنسان في الأرض: نظرات في الأصول الاعتقادية للحضارة الإسلامية**، بيروت والرياض: المكتب الإسلامي ومكتبة فرقد الخاني، ط٢، (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص٧.

بخيرات الأرض طاعة وشكراً لله، واستعداداً للقائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى... هي الوظيفة الوجودية للإنسان في عالم الشهادة، التي سيتقرر على ضوئها مآل الإنسان ومصيره في العالم الآخر، الذي سيلجه عبر بوابة الموت، وما يليه من مراحل انتقال حتى يستقر في الجنة أو النار"[1] من هنا كانت الخلافة عبودية وسيادة، لا تتحقق إلا بهما، فهما شرطا الاستخلاف، فمن عبد الله ولم يسد في الأرض ولم يعمرها لم يكن قائماً بمقتضيات الاستخلاف ولم يكن في حقيقته عبداً لله حيث فصل بين البعد الشعائري للعبودية والبعد الاجتماعي والكوني للعبودية. ومن سعى نحو عمارة الأرض، وتحقيق السيادة عليها مستكبراً في الأرض مستنكفاً عن عبادة الله لم يكن قائماً بمقتضيات الاستخلاف، وكان في حقيقة الأمر عبداً للطبيعة خاضعاً للمادة، فاستبدل عبادة المادة بعبادة الله تعالى، وحينها لم يعد سيداً. ولعل هذه المهمة الكبرى قد هيأ الله تعالى من خلقه من يقوم بأعبائها، وأكرمه بمؤهلات واستعدادات فطرية: عقلياً ونفسياً ووجدانياً وجسمانياً، ومكنه من فرص استثمار وتسخير الطبيعة وعمارة الأرض والسيادة عليها مع ما تحمله هذه السيادة من معاني العبودية لله تعالى، وتحمل الأمانة وأداء المسؤولية.

ويترقى الإنسان في كمالات الاستخلاف بقدر إحاطته بالسنن القاضية: معرفة واستثماراً وتسخيراً، ولا يتحقق هذا الترقي الاستخلافي إلا من خلال شحذ الفعاليات المعرفية بالنظر والبحث والتحرر من الخرافة والظن والهوى، والفعاليات الإيمانية بالتزكية والتحلية بالتحرر من الجبت والطاغوت المادي الأرضي وتمحيض الولاء لله وحده، والفعاليات السلوكية بالتخلق والتربية بأبعادها الشاملة والتحرر من كل آثار الاستكبار والاستضعاف، والفعاليات الإنتاجية بما تحمله من أبعاد مادية وجمالية وثقافية واجتماعية وذلك بالإبداع والتحرر من التبعية والتخلف المادي.

ولا شك أن الفقه السنني هو الذي يمنح للوجود الإنساني معنى حضارياً من

---

(١) برغوث، **منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية**، مرجع سابق، ص٨١.

حيث هو فقه يقوم على استكمال شروط القيام بأمانة الاستخلاف على المستوى الفردي، واستكمال مقومات الشهود الحضاري على مستوى استرجاع الأمة لموقع الوسط. ولذلك لا يتأتى تجديد هذه المعاني الثلاثة: الاستخلاف والشهود والأمة الوسط إلا من خلال إعادة النظر في تعامل الأفراد والأمة اليوم مع فقه السنن وتخليص هذا الفقه من المفاهيم والتصورات الخاطئة التي علقت به في تاريخ المسلمين، وتجديد معناه وإحياء ما اندرس منه.

إن الأثر الاستخلافي الشهودي لفقه السنن يظهر بصورة جلية في الفعل والمنهج النبوي لتشييد عمران الإسلام، فحياته ﷺ كلها تركيز لهذا المعنى، وشحذ له في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم. فهذا الأثر هو الذي ولد لديهم تلك الفاعلية والإيجابية والمبادرة في الفعل والإنجاز وأدركوا حقيقة رساليتهم العالمية الاستخلافية. إن كون الإنسان خليفة في الأرض "يندرج في سياق تأهيله الإلهي، ليكون قادراً على حمل رسالة الاستخلاف، وتحقيق أقصى مستويات الفعالية والمردودية في إنجازها واقعياً. ويتجلى الإنجاز الفعلي لمشروع الاستخلاف على المستوى الاجتماعي، في صورة حضارة وعمران بشري يكون في مستوى هذا المشروع الذي تحددت معالمه، وتأسست مناهجه في ضوء الرؤية القرآنية التوحيدية للحياة والوجود. ومما تأهل به الإنسان لحمل رسالته الاستخلافية، امتلاكه للقدرات العقلية والفكرية والحسية على تعقل الأسباب، والتفاعل مع العالم الخارجي من خلال السُّنن التي تحكمه، وتنظم سائر شؤونه وفق إرادة الله العليا ومشيئته النافذة، وقوته المدبرة."[1]

إن الوعي الاستخلافي الذي يجدده فقه السنن هو وعي استخلافي عمراني، من حيث إن العمران هو تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الله في انسجام وتناغم مع الرؤية التوحيدية الكونية، لتحقيق الوظيفة الوجودية الكبرى وهي الاستخلاف في خط العبودية لله وحده؛ لأن من متعلقات الاستخلاف التكليف، ومن جملة التكليف

(١) برغوث، "ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية"، مرجع سابق، ص٢٣.

عمران العالم وفق شرعة الله ومنهاجه. وسنن الله تعالى جزء من هذه الشرعة الربانية والمنهاج الإلهي. وهذا يؤكد عدم إمكانية حدوث استخلاف عمراني إنساني خارج دائرة العمل بالسنن والسير على هداها؛ إذ لا يصح أن يكون الإنسان خليفة في الأرض وهو غافل عن سنن الله في التاريخ والمجتمع والعمران والمصير. وقد بين عبد الحميد أبو سليمان أنه "من المهم أن ندرك دون أدنى شك أو ريب أن من الأوليات والبدهيات العقلية والحياتية الإنسانية أن السببية والاستخلاف أمران لا ينفصمان؛ لأن غير ذلك يعني عشوائية الحياة، وانعدام قدرة التصرف ومسؤولياته، فينعدم بذلك معنى الحياة، ومعنى الامتحان، ومعنى الإرادة، وليس في ذلك إلا ترويج للشعوذة والخرافة والضياع"[1] بل عدّ أبو سليمان أن "الاستخلاف هو الإرادة الإنسانية والقدرة على التصرف، وهو حمل مسؤوليات الإرادة، وقدرة التصرف المبني على مبادئ التوحيد والتوحيدية والغائية والأخلاقية، وإن إنكار السببية العلمية وطلب الأسباب هو إنكار لحقائق الحياة؛ لأنه إنكار للمشاهد (بفتح الهاء) من قدرة الإنسان على التصرف والتسخير، وذلك إنكار لأصل الخلق، وأصل الطبع، وأصل حقيقة الحياة"[2] فالاستخلاف هو أصلاً استخلاف سنني؛ استخلاف وفق أوامر الله تعالى وتنفيذاً لمراده من تعمير الأرض.

ويمكن صياغة المتتالية الآتية: لا توحيد بلا تكليف، ولا تكليف بلا استخلاف، ولا استخلاف بلا عمران، ولا عمران بلا سنن. وبقدر ما يمثل التوحيد أساس الاستخلاف ومنهجه الذي يحققه، يمثل هذا الأخير الأثر العملي والبعد الإنساني للتوحيد. فالاستخلاف والتوحيد حقيقتان متكاملتان متوازيتان لا يفهم أحدهما في غياب الآخر، "فالتوحيد هو القضية الأساسية الكبرى، الأكثر تكراراً وبروزاً في الكتاب والسنة،... فهو السلك الذي ينتظم حبات أو فقرات هذا الوجود وهذه الحضارة، ويعطيها معناها، ويحدد لها وظيفتها، ويدعم فعاليتها ومصداقيتها، ودونه

(١) أبو سليمان، **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني**، مرجع سابق، ص١٤٨.
(٢) المرجع السابق، ص١٤٨.

يفقد الوجود الإنساني معناه ويضيع وظيفته، ويفقد فعاليته، ويتحول إلى فوضى وخراب... هو الضابط الأساس في ضمان أداء الوظيفة الاستخلافية التي تعدّ المدار الطبيعي لحركة الوجود الإنساني، به تنشد إلى أصولها، وعبره تتجه نحو مقاصدها ونهاية مطافها، بلا انحراف ولا توقف..."[1]

وقد عدّ الراغب الأصفهاني عمارة الأرض وعبادة الله تعالى وخلافته[2] دليل على إنسانية الإنسان، وإلا "فمن لا يصلح لخلافة الله تعالى، ولا لعبادته، ولا لعمارة أرضه فالبهيمة خير منه"[3] كما "لايصلح لخلافة الله تعالى ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا من كان طاهر النفس... لأن الخلافة هي الاقتداء به على قدر طاقة البشر في تحري الأفعال الإلهية"[4] وحين يهتدي الوعي الاستخلافي بالبعد العقيدي التوحيدي الإسلامي فإن فقه السنن لا يخرج هو ذاته عن هذا البعد التوحيدي. وهي متتالية مترابطة تتداخل فيما بينها ينتج عنها أن الاستخلاف لا يتحقق إلا داخل منهج عقيدة التوحيد وامتدادات هذا المنهج التوحيدي[5] فكرياً ونفسياً وثقافياً وسياسياً وحضارياً؛ لأن المستخلف هو الله تعالى، وكان لزاماً على المستخلف لإنجاز مهمة الاستخلاف من أن يوحد الله تعالى، وأن يعمر الأرض بمنهج الله، كما تدل هذه المتتالية على ضرورة جريان مهمة الاستخلاف على سنن سنها المستخلف، ليتحقق المستخلف بمعاني الخلافة، ذلك أنه "لن يكون بمقدور المسلم تنفيذ مطالب مهمته

(١) برغوث، **منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية**، مرجع سابق، ص١٣٠.

(٢) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل. **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق ودراسة: أبو اليزيد أبو زيد العجمي، القاهرة: دار السلام، ط١، (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ص٨٢ و١٦٣-١٦٤.

(٣) المرجع السابق، ص٨٣.

(٤) المرجع السابق، ص٨٦.

(٥) للتوسع أكثر ينظر:

- النجار، **فقه التحضر الإسلامي**، مرجع سابق، ص٤٥-ص٧٩.

الاستخلافية ومنحها الضمانات الكافية، وإعانتها على تحقيق أهدافها، ما لم يضع خطواته على البداية الصحيحة "للتحضر" فيكشف عن سنن العالم والطبيعة ونواميس الكون القريب من أجل الإفادة من طاقاتها المذخورة وتحقيق قدر أكبر من الوفاق بين الإنسان ومحيطه، ودون هذا فإن مبدأ الاستخلاف لن يكون بأكثر من نظرية أو عقيدة تسبح في الفراغ."[1]

إن استصحاب الفقه السنني هو الكفيل بتجديد وعي المسلم الرسالي بوظيفته الاستخلافية والتمكين لحركة البناء والإصلاح من تجديد أمر الدين، والدفع بمكونات الأمة نحو تطوير أدائها الرسالي وكفاءتها الإنجازية بعيداً عن كل المسارات التي يمكن أن تنتج واقع الطغيان والاستكبار، أو واقع الاستضعاف والانكسار والهزيمة. فالسير في الأرض وتبصر السنن يدل على وجود فريقين: فريق اهتدى فكان حرياً به أن يحوز شرف الاستخلاف باجتنابه الطاغوت والاحتياط من الوقوع في الطغيان والاستكبار، وفريق ضل فتنكب عن مهمة الاستخلاف بتكذيبه لسنن الله ورسالات أنبيائه. وفي القرآن المجيد إشارات إلى هذا المعنى، منها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل: ٣٦]. والبعث الرباني للرسل الذي تشير إليه الآية هو تجديد لحركة الاستخلاف وتذكير بمقتضياتها من العهد والميثاق والتكليف، وهو أيضاً إرشاد وبيان إلى ضرورة الاعتبار بسنن الأولين سواء المصدقين منهم أم المكذبين. ولذلك استغرقت حركة الاستخلاف أمور الدنيا والآخرة من حيث هي حركة تكريم و ابتلاء ومدافعة في الدنيا، وحركة جزاء ووراثة في الآخرة.

وإذا كانت أمة الإسلام هي الأمة الخاتمة والأمة الوسط، وكان الإسلام "هو

(١) خليل، **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٣٩.

الرسالة الإلهية الخاتمة لترشيد الإنسان وإمداده بكليات الرؤية الكونية الحضارية لمعنى وغايات وجوده وإمكاناته الفطرية الاستخلافية في الأرض"[1] كانت بهذا المعنى، وتبعاً لذلك هي الأمة الجامعة لمعاني الاستخلاف وسننه ومقتضياته، التي تتحمل على الدوام مسؤولية تجديد هذه المعاني لاستدامة حركة الاستخلاف في الوجود وإقامة الشهادة على الناس: علماً وتبليغاً وعدلاً؛ إذ مناط الاستخلاف متعلق بهذه الثلاثية الفريدة التي يدل عليها مصطلح الشهادة على الناس بحسب السياق القرآني له،[2] من هنا يكون الحديث النبوي "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"[3] مبدأ كلياً في فقه الترقي الاستخلافي والترشيد العمراني الذي يتحقق به الوعد الإلهي وفق منظومة سننية لا ينفصل فيها الفعل البشري السنني عن إرادة الله في البعث التجديدي، وتتداخل عناصر الغيب والإنسان والكون بعناية ربانية عادلة يكون فيها البسط لمن أحاط بسنن الفقه الاستخلافي التسخيري لإقامة العمران البشري، والقبض على من عمي عنها ولم يحط بها علماً.

---

(١) أبو سليمان، **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني**، مرجع سابق، ص١٠٠.

(٢) تفصيل دلالات مفهوم الشهادة ينظر:

- النجار، **فقه التحضر الإسلامي**، مرجع سابق، ص٨١-١٢١.

(٣) حديث صحيح رواه: أبو داود في سننه، والطبراني في المعجم الأوسط، والبيهقي في معرفة السنن والآثار، وصححه الألباني. أنظر:

- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي. **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، (د. ت.)، ج٢، ص٥١٢، حديث رقم: (٤٢٩١).

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. **معرفة السنن والآثار**، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، كراتشي: جامعة الدراسات الإسلامية، ط١، (١٤١٢هـ/ ١٩٩١م)، ج١، ص٢٠٨، حديث رقم: (٤٢٢).

- الطبراني، **المعجم الأوسط**، مرجع سابق، ج٦، ص٣٢٤، حديث رقم: (٦٥٢٧).

- الألباني، محمد ناصر الدين. **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، بيروت والكويت: المكتب الإسلامي والدار السلفية، ط١، ١٣٩٩هـ، حديث رقم٥٩٩.

إن المنهج التجديدي الاستخلافي كما أشار إليه الحديث النبوي "هو الذي يبقى في يقظة دائمة لحاجات الأجيال -أو القرون- المتجددة وما تتطلبه من تجديد في الغايات والوسائل والفهم والتطبيق، وذلك من خلال النظر الواعي في كل من آيات الكتاب وآيات الأنفس والآفاق... ثم الاجتهاد، لاكتشاف السنن الإلهية... وخلال البحث عن هذه السنن يعمد الباحث المجدد إلى اكتشاف مسارات عملها في الماضي، لتحديد كيفية التوافق معها في الحاضر والتعرف على معابرها ومساراتها في المستقبل. ولذلك فعلاقة المجدد بالسلف علاقة منهج لا علاقة أشخاص ومنجزات. وحين يحسم المجددون القيام بوظيفتهم هذه يعمل التاريخ لصالحهم وتكون العاقبة لهم؛ لأنهم يتوافقون مع السنن الإلهية."[1]

ولعل نفرية الإنجاز العمراني التي جسدها النموذج الحضاري الإسلامي العالمي الأول لم تتحقق إلا من خلال الاستشعار الدائم لأمانة الخلافة، واستنفار لكل قوى الأمة العقلية والنفسية والمادية، ورفع مستوى الجاهزية الاجتماعية والسياسية والفعالية الحضارية لاستثمار مقدرات الأمة والفرص والإمكانات المتاحة لخوض معتركات الابتلاء والتداول والتدافع والتجديد في اتجاه إحكام سنن الصيرورة الاستخلافية. "وفي تفسير الخلافة بهذا المعنى الذي فهمه الأئمة ما يقتضي الامتياز بخصيصة العلم التي من أجلها استحق الإنسان أن يكون خليفة الله في أرضه؛ لأنه أوتي من العلم والمعرفة بحقائق الكون، وأوتي من الاستعداد لتلقي وحي الله بشرائعه إليه في تدبير الحياة وسياسة الخلق ما لم يؤته مخلوق غيره، ولا الملائكة المكرمون... مع أن النوع الإنساني المختار للخلافة لا بد أن يقع من بعض أفراده انحراف عن سنن الله وصراطه المستقيم، لكن منزلة العلم والمعرفة التي لا حد لها هي الخصيصة التي امتاز بها، والتي رفعه الله بها فوق كل منزلة لكل مخلوق، وهي التي نيط بها مقام الاستخلاف."[2]

---

(١) الكيلاني، **مناهج التربية الإسلامية**، مرجع سابق، ص٦٨-٦٩.

(٢) عرجون، **القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين**، مرجع سابق، ص٢٦٠-٢٦١.

لقد كان قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٣٠] في سياق الحديث عن التكليف الإلهي للإنسان بمهمة الاستخلاف دليلاً على أن العلم هو شرط التحقق بشرف الاستخلاف والقيام بشرائطه ومقتضياته، وكان بذلك أقدر وأجدر لبناء الحضارة والعمران. لكن لما أبلس الناس ووقع ما في أيديهم ونسوا حظاً مما ذكروا به، وبلغت البشرية طوراً قدره الله تقديراً وحان أوان ختم النبوات، افتتح هذا الختم بما افتتح به خلق آدم فكانت ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق: ١] لتضع الإنسان المسلم الرسالي من جديد في قلب العالم والطبيعة والحضارة. "وبهذه الآيات أعطيت الأمة الإسلامية مفاتيح الإصلاح والهداية، لتعلم أول ما تعلم أنه لا إصلاح بغير علم ومعرفة، فليس مع الجهالة خير،... وبهذه الآيات أخذت الأمة الإسلامية مقاليد خلافة الله في الأرض، لتقيم عليها موازين العدالة بين من وما تظلهم الحياة بظلها الوارف من الناس والأشياء؛ لأن خلافة الله في أرضه حينما تسربلها الإنسان ليقوم بأمانة حملها، وأبت السموات والأرضون والجبال أن تحملها، إنما كان ذلك خصيصة للإنسان؛ لأنه منبع العلم ومهبط التعلم، فهو قد علم فعلم، وكان العلم مصدر فوقه على الملائكة المكرمين"[1] لكن العلم الذي نيط به مقام الاستخلاف لا يتحقق بضربة لازب، ولا تجود به السماء على البشر عبثاً، ولكنه يتحقق هو نفسه وفق سنن الله تعالى في نظام الحياة من خلال التعلم وضبط آلياته ومساراته، ولذلك قال الصادق عرجون: "فليكن العلم في دائرة سنن الله في الحياة وقوانينها هو هدف أمة الإسلام من تبليغها رسالة الإسلام، لأن العلم هو العنوان الأعظم على خلود هذه الرسالة، وهو العنصر الحيوي في تكوين حقيقتها الهادية الراشدة، وهو الآية الكبرى على صدقها وصدق رسولها ﷺ."[2]

من هنا ينهض السؤال الآتي: لم كانت مهمة الاستخلاف مهمة جماعية أكثر منها مجرد مهمة فردية؟ والجواب: "أن مهمة الاستخلاف وإن كانت مسؤولية كل فرد

(١) عرجون، **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق**، مرجع سابق، ج١، ص٥٤٣.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٥٤٥.

إنساني، فهي في ذات الوقت مهمة جماعية اجتماعية تتعلق بالجنس والمجتمع، وتمتد عبر الأفراد إلى المجتمعات، وإلى الأجيال، وهذا يعطي الحرية والمسؤولية الإنسانية أبعاداً مهمة؛ فالمسؤولية غائية تهدف إلى الإصلاح والإعمار، لا إلى الفساد والإفساد، والحرية ليست عبثية غوغائية،... فلا مجال لوجود الفرد، ولا لأدائه الاستخلافي من دون وجود الجماعة، وأدائها الاجتماعي."[1] لكن تراجع الأمة في الأخذ بمنظومة السنن الاستخلافية، وتراجع وعيها الاستخلافي الحضاري، وعجزها عن الاستمرار في القيام بوظيفة الشهادة على العالم جعلها تتعرض لأعنف عملية غزو في التاريخ تمثل في الحرب الحضارية الشاملة التي خاضتها الحضارة الغربية التي سلكت سبيل السنن العامة للعمران الإنساني بحسب منطلقاتها المعرفية ومرجعيتها الفلسفية وأسسها المنهجية وأشكالها التطبيقية.

واستيقظت الأمة من سباتها العميق وراحت تقدم الإجابات لهذا الوضع الحضاري المأزوم، فظهرت دعوات وحركات إصلاحية حملت هم إرجاع الأمة إلى خيريتها ووسطيتها وشهادتها على العالم، لكن كما يقول عبد المجيد النجار: "وعلى الرغم من كثرة الدعوات والحركات الهادفة إلى النهضة الإسلامية وعلى الرغم من توزعها الجغرافي والزمني بحيث شملت معظم أرض العالم الإسلامي وامتدت على مدى ما يقرب من قرنين ونصف من الزمن، فإن الغاية التي قامت من أجلها لم يتم تحقيقها بعد. وإن هذا الأمر ليدعو إلى البحث المتأمل في العلل والأسباب التي أعاقت حدوث النهضة الإسلامية رغم كثرة الداعين إليها والمتحركين من أجلها."[2]

ونستعرض فيما يلي الآيات القرآنية التي وردت في الاستخلاف بلفظ الاستخلاف ومشتقاته، تحديداً تلك التي تعني مجيء شيء بعد شيء آخر والحلول

---

(١) أبو سليمان، **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني**، مرجع سابق، ص١٣٦.

(٢) النجار، **فقه التحضر الإسلامي**، مرجع سابق، ص١٤.

مكانه، وهذه الألفاظ هي: استخلف يستخلف بصيغة الماضي والمضارع، وخليفة، ومستخلَف، وخلَائف، وخُلَفاء. أما المشتقات الأخرىٰ التي لا تعني هذا المفهوم فهي كثيرة منها، لفظ "خَلْف" و"خِلْفَة" و"الخَوالف" و"مُخْلف" و" خِلاف" وغيرها،[1] وهي ليست داخلة في نطاق البحث.

اللفظ الأول : اسْتَخْلَفَ:

ورد لفظ استخلف بصيغة الماضي والمضارع في القرآن الكريم في أربعة مواضع هي:

- الآية الأولىٰ: قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِف مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: ١٣٣].

- الآية الثانية: قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: ٥٧].

- الآية الثالثة: قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩].

- الآية الرابعة: قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

---

(١) عبد الباقي، محمد فؤاد. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، بيروت: دار الفكر والمعرفة، ط٣، ١٤١٢هـ، مادة (خَلف).

اللفظ الثاني : خليفة:[1]

وقد ورد لفظ "خليفة" في القرآن في موضعين هما :

- الآية الأولى: قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٢٩].

- الآية الثانية: قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

اللفظ الثالث : مُستخلَف :

مُستخلَف اسم مفعول لخلف، وقد ورد فيه آية واحدة هي قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [الحديد: ٧].

اللفظ الرابع : خلائف :

والخلائف: جمع خليفة، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في أربعة مواضع هي :

- الآية الأولى: قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥].

---

(١) الخليفة على وزن فعيله والأصل خَليف والهاء فيه للمبالغة، وجمعه خلائف وخلفاء. والخليفة هو الذي يقوم مقام الذاهب ويسد مسده ويُطلق على المفرد، وقد يُراد به الجمع. انظر:

- ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، مادة: خلف.
- ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة: خلف، ج٤، ص١٨١.
- ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، مرجع سابق، مادة خلف، ج٢، ص٦٩.

obeikandl.com

- الآية الثانية: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس: ١٣-١٤].

- الآية الثالثة: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [فاطر: ٣٩].

- الآية الرابعة: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس: ٧٣].

اللفظ الخامس : خلفاء:

الخلفاء: جمع خليفة، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع هي :

- الآية الأولى: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل: ٦٢].

- الآية الثانية: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

- الآية الثالثة: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٤].

إن تأمل هذه الآيات القرآنية تدل كلها على أن حركة الاستخلاف، إنما تقوم على مبادئ الحق لا الهوى، وعلى مقتضيات الهداية لا الضلال، وعلى تلقي الأمر من عند الله للانطلاق في الأرض عملاً وإبداعاً وتعميراً، وعلى النظر في السنن واكتشافها والعمل بها، وعلى التحرر من كل ثقافات الاستعباد والعبثية والعدمية.

إن الاستخلاف بالمعنى القرآني ليس مجرد فكرة نظرية أو عاطفة إيمانية، إنه أصل عقيدي ومنظومة تربوية وفكرية وحضارية مؤيدة بالتوحيد والتزكية، تستهدف إقامة عمران إنساني مستهد بسنن التسخير. إن العمران في حقيقته ماهو إلا نتاج فقه استخلافي مؤسس على الشرعة والمنهاجية القرآنية الكلية الضابطة لحركة الأمة الشاهدة وفق منظومة سننية محكمة ومبينة، ومنظومة قيمية حاكمة وبانية، ومنظومة مقاصدية هادية، كما أن مسألة الاستخلاف تبدو كما يقول عماد الدين خليل "من خلال هذه الآيات مرتبطة بالخيط الطويل العادل من طرفيه: العمل والإبداع ومجانبة الإفساد في الأرض من جهة، وتلقي القيم والتعاليم والشرائع عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والالتزام الجاد بها من خلال ممارسة الجهد البشري في العالم من جهة أخرى. والعلاقة بين هذين الطرفين علاقة أساسية متبادلة بحيث إن افتقاد أي منهما سيؤول إلى الخراب والضياع في الدنيا والأخرة، ويقود إلى عملية استبدال للجماعة البشرية بغيرها ممن تقدر على الإمساك بالخيط من طرفيه:العمل والجهد والإبداع، والتلقي الدائم عن الله لضبط وتوجيه هذا العمل والجهد في مسالكه الصحيحة"[1] ومتى استهدى هذا الفقه الاستخلافي بواردات التلقي عن الله تعالى، وبهذه الشرعة والمنهاج كان استخلافاً رسالياً عالمياً مجدداً لمعاني الميثاق والعهد وأمانة التكليف، وقادراً على إحكام مستويات التسخير والتحكم في مخرجاته وضبط تداعياته وعدم الخروج بها عن مقصود الشارع.

(١) خليل، **مدخل إلى الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٣٨.